الباب الثانى

الفصل الأول : الخطاب الإسلامى

الفصل الثانى : وسائل الخطاب الإسلامى والاتصال الجماهيرى

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

الخطاب الإسلامى

قال تعالى : ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولاً مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [البقرة] .

القسم الأول

تعريفات :

خطب: الخطب: الشأن أو الأمر صغر أو عظم ، وقيل: هو سبب الأمر . يقال: ما خطبك؟ أى : ما أمرك ؟ وتقول : هذا خطب جليل ، وخطب يسير . والخطب: الأمر الذى تقع فيه المخاطبة والشأن والحال ، ومنه قولهم : جل الخطب ؛ أى : عظم الأمر والشأن . وفى حديث عمر ﷺ ، وقد أفطر فى يوم غيم من رمضان فقال : « الخطب يسير »[1] ، وفى التنزيل العزيز قال تعالى: ﴿ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحجر] وجمعه خطوب .

والخطاب والمخاطبة : مراجعة الكلام ، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان .

قال الليث : والخطبة : مصدر الخطيب ، وخطب الخاطب على المنبر ، واختطب يخطب خطابة ، واسم الكلام : الخطبة .

قال أبو منصور : والذى قال الليث : إن الخطبة مصدر الخطيب لا يجوز إلا على وجه واحد . وهو أن الخطبة وهو اسم للكلام الذى يتكلم به الخطيب

---

(١) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى (١٢١٧) وقال: « رواه مالك والشافعى والبيهقى ».

فيوضع موضع المصدر .

قال الجوهرى: خطبت على المنبر خُطبة (بالضم) ، وخطبت المرأة خِطبة بالكسر[١] . (خطب) الناس ، وفيهم وعليهم خطابة وخطبة : ألقى عليهم خطبة ، وفلانة خطب وخطبة : طلبها للزواج ، ويقال : خطب وده .. فهو خاطب (ج) خطاب .

والخطاب: الكلام ، وفى التنزيل العزيز: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾ [ص] وفصل الخطاب: وما ينفصل فيه الأمر من الخطاب . وفى التنزيل العزيز : ﴿ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص]. أيضا الحكم بالبينة أو اليمين ، أو الفقه فى القضاء ، أو النطق بأما بعد ، أو يفصل بين الحق والباطل أو هو خطاب لا يكون فيه اختصار مخل ، ولا إسهاب ممل[٢] .

واصطلاحا: ما تداول على تكراره علماء ومصلحو الأمة بأنه ؛ أى الخطاب الإسلامى: هو ما يحدث الإسلاميون به الناس الآخرين سواء من مواطنيهم أو من غير مواطنيهم ، ويطلق أيضا ليس فقط على الكلمة المكتوبة التى تصدر عن الإسلاميين ، إنما يشمل ما يقدمه الإسلاميون أيضا فى وسائل المعرفة والإعلام الأخرى ، والمعنى الدقيق لما يعنيه هذا المصطلح : هو رأى الجماعات الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها بالأحداث التى تعصف بأمة الإسلام خاصة وبالعالم عامة .

ويعنى أيضا : رأى الإسلاميين فى قضايا ساخنة طارئة أو متداولة بين الناس وبعض الكتاب والباحثين خص وجودها أو حدودها – أى : القضايا – بالإعلام[٣] ، وفى الكتاب المشار إليه يؤكد الكاتب على سلبيات الخطاب

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، إعداد يوسف خياط ، دار لسان العرب ، بيروت ، ج١ ، ص٨٥٥ .

(٢) إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، دار الدعوة ، استامبول، ج١ ، ص٢٣٤ .

(٣) عمر عبيد حسنة : مراجعات فى الدعوة والفكر والحركة ، المعهد العالى للفكر الإسلامى هيرندن ، فرجينيا ، الولايات المتحدة الأمريكية ، ط١ ، ١٩٩١م ، ص٣٦ فما بعد .

الإسلامى المعاصر فيقول : وليس ما يسمى بالصحافة الإسلامية ، أو الصفحات الدينية المعزولة عن السياق العام للصحافة حيث الكثير من المواد الصحفية الأخرى لا تنضبط بالقيم الإسلامية فى الصحافة اليومية أو الأسبوعية أحسن حالا إذا نظرنا إليه ضمن الإطار الإعلامى المقروء والمكتوب ذلك أن العقل المسلم المعاصر لا يزال بعيدا عن تقدير قيمة التخصص...إلخ .

وأمام المد الإسلامى العظيم كان لا بد من بعض الاستجابات وبعض المحاولات ، فأنشئت معاهد وأقسام للدعوة والإعلام الإسلامى فى المعاهد والجامعات ، لكنها لم تمتلك القدرات الأكاديمية الكافية ، والخبرات العملية المتراكمة التى تؤهلها تماما للقيام بمهماتها ، ولم تتوفر لها الكوادر البشرية المتخصصة ؛ لأن الصحوة فى بواكيرها كانت حركة وعى وتعبئة ودفاع عن النفس ، وإثبات الوجود ، وتحقيق الذات ، أكثر من أن تكون حركة نهضة متكاملة تضبط النسب ، وتبصر الحاجات ، وتوفر التخصصات المطلوبة وتؤمن بضروريتها وتدرك أهميتها ، الأمر الذى أصبح من الضرورات اليوم .

لقد اتكأ الكثير فى خطابه على مفهومات وكان الارتكاز إليها طبيعيا فى مرحلة معينة ، أما اليوم فقد أصبحت بحاجة إلى المراجعة .. ولئن صدقت مقولة : إن المهم إيقاظ الأمة ، وتحريك وعيها ، وبعد ذلك فالقرآن يمتلك كل شىء : ﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] هذا فى المرحلة الأولى لحركة الوعى الإسلامى ، أما اليوم بحاجة إلى بلوغ الأبعاد التخصصية ، والمقومات الأساسية المطلوبة لترشيدها واستمرارها ... والقرآن يضع الأصول والمبادئ والقيم التى لا تغنى عن البرامج والخطط التى تبصر المتغيرات ، وتدرك أبعاد الخطاب ومقوماته فى كل وزمان ومكان[1] .

---

(١) عمر عبيد حسنة : مراجعات فى الدعوة والفكر والحركة ص٤٦ ، ٤٧ ، ونقر هنا بأن صاحب المرجع الأستاذ عمر عبيد حسنة قد قدم للإعلام الإسلامى نموذجا فريدا وفذا ونادرا عندما رأس تحرير مجلة الأمة القطرية من صدورها حتى توقفها .

الخطاب الإسلامى الآن يشمل :

١- نتاج الفكر الإسلامى على مدى أربعة عشر قرنا ونيف من ظهوره حتى اليوم ، فهو تراث قل أن حازت أمة فى الدنيا كما حاز الفكر الإسلامى من الشمول والثبات والصدق الواقعية ، وهو كل يوم فى تجديد .

٢- رأى الإسلام بالقضايا المعاصرة عامة مهما كانت خطورتها وآراؤها ومحاولاتها تخطى مدارك الإنسان وعقله ومقوماته والتى هى بحدود علمه ومعرفته : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة] .

٣- التوحيد : وهو رسالة الأنبياء من آدم إلى لدن محمد ﷺ ودعوة الدعاة الى يوم الدين ، والدعوة إلى الإيمان والإسلام بالوسائل والطرق التى أمرنا الله تعالى بها .

٤- السبل والوسائل والطرق التى يمكن أن يصل بها الخطاب الإسلامى إلى أصحاب الشأن .

٥- التعليم والإعلام والتربية والدعوة والسلوك والرؤيا الواضحة للمستقبل المنشود للمسلمين .

٦- التعبير الصادق عن مكنون وأهداف وحوافز وقضايا المسلمين فى جميع أصقاع الدنيا فوق أى أرض كانوا .

٧- تسخير كافة الطاقات وبلورتها لتكون أداة فعالة وأداة خير وثبات وتقدم وتكاد تكون معادلة المسلمين الصعبة اليوم ، تكمن فى عدم قدرتهم على الارتفاع بخطابهم ودعوتهم إلى مستوى إسلامهم وعصرهم وعالميتهم ، وبدلاً من أن يكونوا قادرين على قراءة الأزمات التى تمر بعالمهم والعالم قراءة إسلامية

صحيحة من خلال إعلام راشد ، وبدلاً من أن يكونوا قادرين على توظيف الأحداث لمصلحة الإسلام ، ومصلحة الإنسان ، نرى الأحداث توظفهم ، فيخوض أعداؤهم المعركة بإعلامهم ، وتصفى الحسابات بدمائهم ويقاتلون بالنيابة عن الآخرين[١] ، ويعجزون عن الوقوف عن ثوابت صلبة وتأصيل الرؤى الإسلامية البديلة بعد أن سقطت الرؤى ذات النزعات القومية ، والعرقية والعلمانية ، والطائفية ، والحزبية التى اختبأ وراءها أعداء الإسلام ولم تجن منها الأمة إلا المصائب والعلقم .

إن عالمية الرسالة تقتضى عالمية الخطاب ، وعالمية الخطاب لا تبلغ مداها المطلوب ما لم تكن عندنا القدرة على فهم العالم بعقائده ، وثقافاته ، وتاريخه ، وحاضره ، ومشكلاته ، وتطلعاته ، وفهم الكيفيات والآليات التى يتم من خلالها تشكيل الرأى العام ، وشروط تغييره ، والتأثير عليه ، كأمور لابد منها لتحديد المداخل الحقيقية للخطاب . كما لابد من التمكن من لغات الخطاب العالمية لتكون فى مستوى التكليف فى قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤] ... إلخ[٢].

القسم الثانى
المصدر الخطى للخطاب الإسلامى

المصدر الخطى يعنى المادة المكتوبة المتضمنة للخطاب الإسلامى .

أولا : القرآن الكريم :

فإن الخطاب الإسلامى ينبع من خير نبع فى هذه الدنيا ، كتاب الله تعالى :

---

(١) القتال عن الآخرين شىء محمود إن كان لردع ظلم أو دفع أذى ، لكن المسلمين يقاتلون فى الواقع عن الآخرين من غير أى هدف .

(٢) المصدر السابق ص٤٧ ، ٤٨ .

كتاب أحكمت آياته من لدن خبير عليم ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أنزل على قلب محمد ﷺ فى ثلاثة وعشرين عاما ، منها ثلاثة عشر ، فى مكة وعشرة فى المدينة ، أكمله الله تعالى لخلقه فقال: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

كافلا بيان الأحكام ، شاملا لما شرعه لعباده من الحلال والحرام ، مرجعا للأعلام عند تفاوت الأفهام وتباين الأقدام وتخالف الكلام ، قاطعا للخصام ، شافيا للسقام مرهقا للأوهام ، فهو العروة الوثقى التى من تمسك بها فاز بدرك الحق القويم ، والجادة الواضحة التى من سلكها فقد هدى إلى الصراط المستقيم فأى عبارة تبلغ أدنى ما يستحقه كلام الحكيم من التعظيم ؟ وأى لفظ يقوم ببعض ما يليق به من التكريم والتفخيم ؟ كلا والله إلا بلاغات البلغاء المصاقع وفصاحات الفصحاء البواقع ، وإن طالت ذيولها ، وسالت سيولها ، واستنت بميادينها خيولها ، تتقاصر عن الوفاء بأوصافه ، وتتصاغر عن التثبت بأدنى أطرافه ، فيعود جيدها عنه عاطلا . وصفات ضوء الشمس تذهب باطلا ، فهو كلام من لا تحيط به العقول علما ، ولا تدرك كنهه الطباع البشرية فهما ، فالاعتراف بالعجز عن القيام بما يستحقه من الأوصاف العظام أولى بالمقام ، وأوفق بما تقتضيه الحال من الإجلال والإعظام[1] .

وعلى ما لحق بالقرآن الكريم من علوم التفسير والتجويد والبيان والأحكام وغير ذلك .

ثانيا : حديث رسول الله ﷺ وسيرته :

فهو الذى لا ينطق عن الهوى ، علمه شديد القوى ، أنزل الله تعالى عليه القرآن الكريم فكانا أمينا بالتلقى ، أمينا بالنقل ، فرق بين الأقوال التى أمره الله تعالى بها .

فهذا قرآن كريم حفظه فى قلبه ، يراجعه فيه جبريل كل عام مرة فى شهر

---

(١) محمد بن على الشوكانى : فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير دار ابن كثير ، دمشق ودار الكلم الطيب ـ دمشق ـ بيروت ج ٢، ص ١١٣.

رمضان ، وراجعه مرتين فى العام الذى قبض به فى ترتيبه ورسمه وأحكامه .

وهذا حديث قدسى ورد لفظا على لسان النبي ﷺ ، وهو إرادة وقولا من الله عزوجل ، ساقه على لسان النبي ﷺ وهو غير القرآن ، وهذا حديث النبي ﷺ ، ما قاله أو فعله أو آثره . وهيأ الله تعالى لجمع الحديث وتصنيفه وتبويبه وتدوينه ونقله وتوضيحه ، ما لم يهيئ لأمة من أمم الأرض فى الماضى والحاضر من الجهد والجد والصدق والتحرى ، حتى أصبح الحديث بين أيدى المسلمين بكل جزئياته وتفاصيله وخيره وحتى السقيم والمريض والغريب منه .

أحمدك يا من شرح صدورنا بنيل الأوطار من علوم السنة ، وأفاض على قلوبنا من أنوار معارفها ما أزاح عنا من ظلم الجهالات كل دجنة ، وحماها بحماة صفدوا بسلاسل أسانيدهم الصادقة أعناق الكذابين ، وكفاها بكفاة كفوا عنها أكف غير المتأهلين من المنتابين المرتابين ، فغدا معينها الصافى غير مقذر بالأكدار وزلال عذبها الشافى غير مكدر بالأقذار . والصلاة والسلام على المنتقى من عالم الكون والفساد ، المصطفى لحمل أعباء أسرار الرسالة الإلهية بين العباد ، المخصوص بالشفاعة العظمى فى يوم يقول فيه كل رسول : نفسى نفسى ، ويقول: « أنا لها ، أنا لها » . القائل: « بعثت إلى الأحمر والأسود» أكرم بها مقالة ما قالها نبى قبله ولا نالها [١].

الحمد لله ، الملك الجليل الذى أرسل محمدا ﷺ بواضح الدليل ، وأذل لوطأته أهل الشرك والأباطيل ، بعثه من خير القرون فى أعز قبيل ، ونوه بقدرة وقدرهم فى آى كثيرة من التنزيل ، وأظهر لنا أمثالهم فى التوراة والإنجيل فقال تعالى مثنيا عليهم فى صورة التمثيل ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ

---

(١) محمد بن على الشوكانى : نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١، ١٩٨٣م ، ج١ / من المقدمة ، ص٢ .

أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ [الفتح] (١) .

وتأتى السيرة النبوية المطهرة فى المقام المرفوع من مصادر الخطاب الإسلامى فإن مما لا خلاف فيه بين المسلمين أن رسولنا ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وحجة الله على خلقه أجمعين . وقد بعثه الله تعالى بالدين القويم ، والصراط المستقيم ، وجعل رسالته عامة للناس أجمعين إلى يوم الدين .

وأقام به الملة العوجاء ، وفتح بهديه أعينا عمياء ، وآذانا صماء ، وقلوبا غلفا وهدى به البشرية التائهة إلى أقوم طريق ، وأوضح سبيل ، وأحسن منهج . وقد افترض الله تعالى على العباد طاعته ، وتوقيره ومحبته ، والاقتداء بهديه واتباع سنته ، وجعل العزة والمنعة والنصرة والولاية والتمكين فى الأرض لمن اتبع هداه ، وترسم خطاه . والذلة والصغار ، والخذلان والشقاء والضعف والمهانة على من خالف أمره وعصاه .

وإن معرفة عباد الله تعالى ، والعمل بدينه الذى أنزله لصلاح شؤون العباد فى الدنيا والآخرة متوقفة على معرفة هدى رسول الله ﷺ وطريقته العملية التى بين فيها شرع الله تعالى من أول ما نزل عليه الوحى إلى أن أكمل الله تعالى هذا الدين .

وقد وعت كتب السنة والمغازى والتاريخ والشمائل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وصفاته من أول نشأته إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره ـ لا سيما الفترة التى أدى فيها الرسالة ـ ولم تدع أمرا من أموره ، ولا شأنا من شؤونه دق أو جل إلا أحصته ، حتى إنك لتجد فيها صفة قيامه وجلوسه ، ونهوضه من نومه ، وهيئته

---

(١) يحيى بن أبى بكر العامرى : الرياض المستطابة ، مكتبة المعارض ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٦م ، من المقدمة ، ص٧ .

وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] (١) .

وتأتى السيرة النبوية المطهرة فى المقام المرفوع من مصادر الخطاب الإسلامى فإن مما لا خلاف فيه بين المسلمين أن رسولنا ﷺ خاتم النبيين وإمام المرسلين ، وحجة الله على خلقه أجمعين . وقد بعثه الله تعالى بالدين القويم ، والصراط المستقيم ، وجعل رسالته عامة للناس أجمعين إلى يوم الدين .

وأقام به الملة العوجاء ، وفتح بهديه أعينا عمياء ، وآذانا صماء ، وقلوبا غلفا وهدى به البشرية التائهة إلى أقوم طريق ، وأوضح سبيل ، وأحسن منهج . وقد افترض الله تعالى على العباد طاعته ، وتوقيره ومحبته ، والاقتداء بهديه واتباع سنته ، وجعل العزة والمنعة والنصرة والولاية والتمكين فى الأرض لمن اتبع هداه ، وترسم خطاه . والذلة والصغار ، والخذلان والشقاء والضعف والمهانة على من خالف أمره وعصاه .

وإن معرفة عباد الله تعالى ، والعمل بدينه الذى أنزله لصلاح شؤون العباد فى الدنيا والآخرة متوقفة على معرفة هدى رسول الله ﷺ وطريقته العملية التى بين فيها شرع الله تعالى من أول ما نزل عليه الوحى إلى أن أكمل الله تعالى هذا الدين .

وقد وعت كتب السنة والمغازى والتاريخ والشمائل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وصفاته من أول نشأته إلى أن اختاره الله تعالى إلى جواره ـ لا سيما الفترة التى أدى فيها الرسالة ـ ولم تدع أمرا من أموره ، ولا شأنا من شؤونه دق أو جل إلا

---

(١) يحيى بن أبى بكر العامرى : الرياض المستطابة ، مكتبة المعارض ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٧٦م ، من المقدمة ، ص٧ .

أحصته ، حتى إنك لتجد فيها صفة قيامه وجلوسه ، ونهوضه من نومه ، وهيئته فى ضحكه ، وابتسامته ، وعبادته فى ليله ونهاره . وكيف كان يفعل إذا اغتسل أو أكل ، وكيف كان يشرب ، وماذا كان يلبس . وكيف يتحدث إلى الناس إذا لقيهم ، وما كان يحب من الألوان وما هى حليته وشمائله .

ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا أنه ليس فى الدنيا إنسان كامل تحدث التاريخ عن سيرته على التفصيل كما تحدث عن تفاصيل حياة نبينا محمد ﷺ خاتم النبيين[١] .

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . كلمة قامت بها الأرض والسموات ، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات ، وبها أرسل الله تعالى رسله ، وأنزل كتبه ، وشرع شرائعه .

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، وأمينه على وحيه ، وخيرته من خلقه ، وسفيره بينه وبين عباده ، المبعوث بالدين القويم ، والمنهج المستقيم ، أرسله الله رحمة للعالمين ، وإماما للمتقين . وحجة على الخلائق أجمعين ، أرسله على حين فترة من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد طاعته وتعزيزه ، وتوقيره ومحبته والقيام بحقوقه وسد دون جنته الطرق فلن تفتح إلا من طريقه ، فشرح له صدره ، ورفع له ذكره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره .

ففى « المسند » من حديث أبى منيب الجرشى ، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمرى ، ومن تشبه بقوم فهو منهم »[٢] ، وكما أن الذلة مضروبة على من خالف أمره ،

---

(١) ابن قيم الجوزية : زاد المعاد فى هدى خير العباد . مقدمة المحققين ، شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥، ص٦٥.

(٢) أحمد (٢ / ٥٠) وقال الشيخ أحمد شاكر (٥١١٤) : « إسناده صحيح » ، وجود سنده ابن تيمية فى الاقتصاد ، ص٣٩ .

وكان ذلك الغير من أهل العلم به ولسنته . فبهذه الشروط يكون قول غيره سائغ الاتباع . فلا يجب على أحد اتباع قول أحد سواه ، بل غايته أنه يسوغ له اتباعه ، ولو ترك الأخذ بقول غيره ، لم يكن عاصيا لله ورسوله .

فأين هذا مما يجب على جميع المكلفين اتباعه ، ويحرم عليهم مخالفته ، ويجب عليهم ترك كل قول لقوله؟ فلا حكم لأحد معه ، ولا قول لأحد معه ، كما لا تشريع لأحد معه وكل من سواه ، فإنما يجب اتباعه على قوله إذا أمر بما أمر به ، ونهى عما نهى عنه فكان مبلغا محضا ومخبرا لا منشئا ومؤسسا . فمن أنشأ أقوالا ، وأسس قواعد بحسب فهمه وتأويله . لم يجب على الأمة اتباعها ، ولا التحاكم إليها حتى تعرض على ما جاء به الرسول ؛ فإن طابقته ووافقته ، وشهد لها بالصحة ، قبلت حينئذ ، وإن خالفته وجب ردها وإطراحها ، فإن لم يتبين فيها أحد الأمرين ، جعلت موقوفة ، وكانت أحسن أحوالها أن يجوز الحكم والإفتاء بها وتركه ، وأما أنه يجب ويتعين ، فكلا ولما[1] .

والحمد لله الذى اصطفى من ينابيع جوده نبع بدائعه ، محمدا أكمل الخلق روحا وعقلا وأقومهم بدنا ورسما ، وأعلاهم قدرا وذكرا ، وأرفعهم فضلا ونبلا ، وأشرفهم مجدا وعزا ، وأحسنهم خلقا وخلقا ، وأصدقهم قولا وفعلا ، وأصفاهم طوية وقلبا ، وأطهرهم نية وقصدا ، وأهداهم طريقا وهديا ، وأرشدهم سلوكا ومنهجا ، وأسدهم مسلكا ورأيا ، وأنبلهم غاية ومقصدا ، وأكرمهم أصلا ومحتدا ، وأعزهم بيتا ومنبعا ، وأعرقهم أرومة وجمعا.

أدبه فأحسن تأديبه ، ورباه فأكمل تربيته ، آواه إلى كنف عزه فى يتمه ، وهداه من حيرة تعبده إلى نور نبوته . وأغناه من عيلته فلم يحوجه لغير جوده ، وشرح له صدره حتى انفسح لكتاب الكون علما ومعرفة ، ورفع له ذكره ، فقرنه إعزازا له فى تحقيق الإيمان به بذكره ، وجعل محبته شطرالإيمان ، واتباعه عنوان محبته ، فلا إيمان يقينياً لمن لم يكن محمد ﷺ أحب إليه من نفسه التى بين جنبيه ، وأحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين ، ولا إيمان يقينيا لمن لم

---

(١) زاد المعاد : مقدمة المؤلف ، ص٣٤ ـ ٣٨ بتصرف .

يكن هواه تبعا لما جاء به من الهدى والعلم.

ولن يغنى فى قبول الإيمان اتباع مع جفوة ، أولئك يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ولن يفارق الإيمان صدق المحبة ، فالاتباع المرضى عنوان لمحبة الله هو الاتباع النابع من المحبة لنبيه ﷺ ، ومن هنا كانت طاعته طاعته ، وهديه هديه ، ورضاه رضاه ، وبيعته بيعته ، وصراطه صراطه ، خلع عليه حلل فيضه ، وألبسه خلع رأفته ورحمته ، فكان الرؤوف الرحيم بالمؤمنين ، وكان المرسل رحمة للعالمين.

وخصه بالصلاة عليه ، ومنح ملائكته ـ تشريفا ـ هذا الفضل بين يديه ، وأمر عباده المؤمنين أن يتخلقوا بخلقه الأعلى فى سبحات الصلاة عليه ، وجعل سلامهم عليه وصلة أرواحهم وصائل روحه لينعموا بجنات رده تسليمهم عليه ولم يشق من حظى من حبيب الله برد السلام عليه فصلوات الله وصلوات الملأ الأعلى ، وصلوات المؤمنين من عالم الغيب والشهادة أينما حل الزمان بهم فى مكان من الوجود على محمد المجتبى من أشرف أرومة ، رسولا لخير أمة كانت به بؤرة شمس الإنسانية ومشرق إشعاع الهداية الربانية ، والسلام الأكمل الأنضر ورحمة الله وبركاته عليه ، ما ذكر الله الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون.

فهو ﷺ الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلفة فى الأرض ، تستمد الأجيال فى أعصرها المختلفة من هديه نورا يضىء لها آفاق الحياة ، ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمل أمانة الله فى إدراك الحقائق الكونية: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ﴾ [النمل: ٩٣] (١).

ثالثا: الفقه الإسلامى :

الذى استنبطه العلماء والفقهاء والمحدثون فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ .

---

(١) محمد الصادق عرجون : محمد رسول الله ﷺ ، دار القلم ، دمشق ، ط١، ١٩٨٥، ج١ ، ص١٧ ـ ١٨ بتصرف .

قال تعالى العزيز الحكيم العظيم: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات].

وهذا نص فى أن العباد خلقوا للعبادة ولعمل الآخرة والإعراض عن الدنيا بالزهادة ، فكان أولى ما اشتغل به المحققون واستغرق الأوقات فى تحصيله العارفون ، وبذل الوسع فى إدراكه المشهورون ، وهجر ما سواه لنيله المتيقظون بعد معرفة الله وعمل الواجبات التشمير فى تبيين ما كان مصححا للعبادات ، التى هى دأب أرباب العقول وأصحاب الأنفس الزكيات ؛ إذ ليس يكفى فى العبادات صور الطاعات ، بل لابد من كونها على وفق القواعد الشرعيات ، وهذا فى هذه الأزمات وقبلها بأعصار خاليات ، قد انحصرت معرفته فى الكتب الفقهيات المصنفة فى أحكام الديانات ، فهى المخصوصة ببيان ذلك وإيضاح الخفيات منها والجليات ، وهى التى أوضح فيها جميع أحكام الدين والوقائع الغاليات النادرات وحرر فيها الواضحات والمشكلات .

وقد أكثر العلماء رضى الله عنهم التصنيف فيها من المختصرات والمبسوطات وأودعوا فيها المباحث والتحقيقات والنفائس الجليلات ، وجمع ما يحتاج إليه وما يتوقع وقوعه ولو على أندر الاحتمالات البدائع وغايات النهايات ، حتى تركونا على الجليات الواضحات ، فشكر الله الكريم لهم سعيهم وأجزل لهم المثوبات ، وأحلهم فى دار كرامته أعلى المقامات ، وجعل لنا نصيبا من ذلك ومن جميع أنواع الخيرات ، وأدامنا على ذلك فى ازدياد حتى الممات ، وغفر لنا ما جرى وما يجرى منا من الزلات ، وفعل ذلك بوالدينا ومشايخنا وسائر من نحبه ويحبنا ومن أحسن إلينا وسائر المسلمين ، إنه سميع الدعوات جزيل العطيات [١].

وبعد ، فإن تنظيم شؤون الحياة والعلاقات الاجتماعية بين الناس لا يتم على نحو صحيح فى ميزان العدل الإلهى والمنطق البشرى بدون عقيدة سامية ، وأخلاق

---

(١) أبو زكريا محيى الدين بن شرف النووى : كتاب المجموع ، دار الفكر ، ج١ ، ص٢ المقدمة .

رصينة ومبادئ وأنظمة شاملة . تضع حدا للفرد فى ذاته وفى سره وعلانيته ، وللأسرة الخلية الأولى للمجتمع ، وللمجتمع الكبير المنتظم تحت سلطان الدولة ليعيش فى أمن واستقرار ويظل فى تقدم إلى الأمام ، وليحمى نفسه من الأمراض التى قد يتعرض لها ، والتيارات التى تغزوه وتهز كيانه ، إما بسبب الضعف والانحلال والفساد ، أو بسبب الفقر والجوع ، أو بسبب التسلط والظلم والاستعباد ، أو بسبب الترف والأهواء ، أو بسبب طغيان المادة على كل شىء كما فى عصرنا الحاضر.

ولا عاصم لهذا المجتمع من التردى والانحدار أو الضياع ، إلا بباعث إصلاحى قوى يهز أركان الانحراف ، ويقض مضاجع الغافلين السادرين ، ليعيد إلى النفس الشعور بالذات والثقة بها ، وضرورة إثبات وجودها وحيويتها وفاعليتها . وليس مثل القرآن العظيم ، وسيرة نبى الإسلام أصدق لهجة ، وأقوم دعوة ، وأخلص هدفا فى تصحيح مسيرة الناس : ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الإسراء : ١٠٥] ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإسراء] .

ولا يمكن البقاء لأى دعوة تعتمد على الاعتقاد الداخلى أو العاطفة فقط ، بل لا بد - دائما - من الالتزام العملى ببعض الواجبات ، ليكون ذلك دليلا على صحة الاعتقاد ؛ لأن الإيمان الصحيح هو ما وقر فى القلب وصدقه العمل.

وقد كان فقه الإسلام الذى ما يزال موضع اعتزاز وفخار وتقدير بين أنواع الفقه العالمى خير صورة عملية للمسلمين . لبى مطالب الناس فى حكم أقوالهم وأفعالهم وتصرفاتهم ، وتنظيم شؤون حياتهم ، وفيه يبلورون بحق أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية ، وبه تحقق المقصد الأسمى والغاية الكبرى لهذا الدين الحنيف ؛ لأن ما جاء به الإسلام من مبادئ فى العقيدة الصحيحة ، والعبادة

السليمة ، والمعاملة ، المستقيمة ، إنما يستهدف فى الحقيقة تحقيق أغراض تهذيبية تؤدى إلى تصحيح المعاملات والسلوك الاجتماعى . وكان الفقه الأكبر : وهو معرفة النفس ما لها وما عليها ، والفقه بالمعنى الضيق وهو الأحكام الشرعية العملية : هو الترجمة الصادقة الدقيقة لشريعة الإسلام ، ومنهاج القرآن فى الحياة[١].

رابعا : حياة الصحابة رضوان الله عليهم :

وكان الصحابة من كرم مصاحبة الفضل الذى وصلوا إليه ، فقد مدحهم الله تعالى مدحا لم ينل منه أحدا من العالمين من قبلهم أو من بعدهم ما نالوه ، فرضى الله عنهم ورضوا عنه ويد الله فوق أيديهم عندما بايعوا المصطفى ﷺ فى الحديبية بيعة الرضوان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ ﴾ [الفتح] ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠ ﴾ [الفتح : ١٠] .

وقال تعالى : ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ ﴾ [الفتح] .

---

(١) وهبة الزحيلى : الفقه الإسلامى وأدلته ، دار الفكر ، دمشق ط٣ ، ١٩٨٩، ج١ ، ص٥ ـ٦ .

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ﴾ [الفتح:٢٩].

إن سيرة النبي ﷺ وسير الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية ، التى لا تزال هذه الدعوات الدينية تقتبس منها شعلة الإيمان ، وتشعل بها محاجر القلوب التى يسرع انطفاؤها وخمودها فى مهب الريح والعواصف المادية ، والتى إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها وأصبحت جثة هامدة تحملها الحياة على أكتافها .

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقوها ، وما كان قولهم إذا دعو إلى الله ورسوله إلا أن قالوا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] ووضعوا أيديهم فى يد الرسول ﷺ ، وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم ، واستطابوا المرارات والمكاره فى سبيل الدعوة إلى الله ، وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، وسيطر على نفوسهم وعقولهم وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب ، والحب لله والرسول ، والرحمة على المؤمنين ، والشدة على الكافرين ، وإيثار الآخرة على الدنيا ، وإيثار الآجل على العاجل ، والغيب على الشهود ، والهداية على الجباية ، والحرص على دعوة الناس وإخراج خلق الله من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها ، والشوق إلى لقاء الله والحنين إلى الجنة ، وعلو الهمة ، وبعد النظر إلى نشر رفد الإسلام وخيراته فى العالم ، وانتشارهم لأجل ذلك من مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها ، وأغوارها وأنجادها ، ونسوا فى ذلك لذاتهم ، وهجروا راحاتهم ، وغادروا أوطانهم ، وبذلوا مهجهم وحر أموالهم . حتى ألقى الدين بجرانه ، وأقبلت القلوب إلى الله ، وهبت ريح الإيمان قوية عاصفة ، طيبة مباركة ، وقامت دولة التوحيد والإيمان والتقوى ، ونفقت سوق الجنة ، وانتشرت

الهداية فى العالم ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا.

ضمت وقائعهم كتب التاريخ وحفظت أخبارهم دواوين الإسلام ، وكانت دائما مادة التجديد والبعث الجديد فى حياة المسلمين ، ولذلك اشتدت عناية دعاة الإسلام والمصلحين بهذه الحكايات ، واستعانوا بها فى إيقاظ همم المسلمين وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدينية[١] .

وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحزاب].

فكان الصحابة رضوان الله عنهم ذلك الجيل الفريد فى الدنيا الذى لم يجتمع مثلهم لنبى أو مصلح دفعة واحدة ، ولكنهم هم ذلك الجيل الذى تمكن من قلوب المؤمنين حبا لهم وترض عليهم ، والاقتداء بهم ، واتباع منهجهم ، والأخذ بما اتفق من أقوالهم ، فكانوا جيلا لم يتكرر فى التاريخ ، مع تكرارهم بجماعات أو فرادى فى أماكن متفرقات وأزمنة متباعدات ، فهم القدوة ، وهم المثل ، وهم الذين رضوا عن الله فرضى عنهم.

خامسا : التاريخ والحضارة الإسلامية :

من المصادر المهمة جدا للخطاب الإسلامى ، فقد احتل التاريخ الإسلامى

---

(١) أبو الحسن على الحسنى الندوى ـ من مقدمة كتاب : حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوى ، دار المعرفة ، بيروت ـ من المقدمة .

محور الحياة على الأرض فى الفترة التى عرفت بالمصطلح التاريخى بالقرون الوسطى . وكان هو المحرك الفاعل خلال العشرة قرون ، من السابع إلى السابع عشر من ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

واستأثر التاريخ الإسلامى فى هذه الفترة وما تلاها كل النشاط البشرى فى الأرض من قوة وعلم واقتصاد واجتماع وسياسة واختراع ، وكانت الشعوب الأخرى تنهل من هذا التاريخ وهذه الانجازات فى مختلف فنون المعرفة وبناء الحضارة ، ولم يواز هذا التاريخ أو ينافسه تاريخ آخر من تاريخ الشعوب التى عاصرت هذه الفترة أو عاشت فيها ، وكل ما رافق هذه الفترة من قوى أخرى أسلم قياده بصورة من الصور إلى قيادة المسلمين ، أو كانت متأثرة بهم حتى أن مجمل التفكير البشرى لم يكن أكثر من تابع لهم ، لما أنتجه المسلمون أو ما قدموه للإنسانية على مختلف احتياجاتهم ومقومات حياتهم واستمراريتها .

أمة التوحيد هى التى عنيت بقوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران] .

استحقت أمة الإسلام هذا الوصف فسادت الدنيا وطوعتها من كل جوانبها ولم يبق عند الناس من علم أو معرفة إلا واستحوذ المسلمون عليها . ومع هذا الدور الرائد الذى قام به المسلمون خلال هذه الفترة وبعضا مما تلاها ، فإن المسلمين قد سدوا ثغرات كبيرة فى مجالات كثيرة ، إذ إنهم تمكنوا أن يجدوا فى الأرض إنسانية الإنسان ، وتوثيق المعرفة بحدوده فى الأرض ، وإظهار المهمة التى كلفه الله بها كمخلوق سيد لجميع المخلوقات فى هذه الدنيا[1] .

وكان الإنسان المسلم الذى صنع التاريخ الإسلامى ، وقدمه بهذه الصورة

---

(١) راجع مقدمة كتابنا : الوجيز فى التاريخ الإسلامى ، ص١ فما بعدها .

المشرفة وبثه فيض إيمان ويقين ، وتزكية نفس ، فكان كل ما قدمه خالدا ثابتا واضحا نيرا فى أى مجال من المجالات سواء فى الحرب أو العلم أو المعرفة أو البناء أو الحضارة ، فغدت حضارة الإسلام نموذجا ماديا روحيا فريدا بين حضارات الأمم السابقة واللاحقة ، وما زالت فخر واعتزاز كل الشعوب التى تشرفت أرضها ببناء حضارة الإسلام عليها .

ويبقى العدد الهائل من الرجال الدعاة القضاة القادة العلماء نوعا فريدا جدا من البشر لم تكن حياتهم تناقضا أو مشكلات ، لكنها كانت فى منتهى الإيمان واليقين والسمو والرفعة على اختلاف تخصصاتهم واتجاهاتهم ، ولم ينقطع عن الدنيا ـ ولمن أراد التوسع فى دراسة تاريخ الإسلام ـ هذا الرفد الطيب الذى بدأ بالصحابة - رضوان الله عليهم - واستمر وسيبقى إلى يوم الدين .

فلقد تمكن المسلمون من القضاء على كل الهرطقات التى احتلت عقل الإنسان القرون الطويلة ، وخلصوا العقل البشرى من التردى فى تصور العبودية ، وتحويل العبودية لله وحده من دون مخلوقاته . وعلى الرغم من أن الإسلام قد حارب طويلا هؤلاء ، لكنه أخيرا خلصهم مما كانوا فيه من ترد فى هذا المضمار . خلص العرب أولا من وثنيتهم ، والفرس من شركهم ، والترك والهنود والأفارقة والبربر وكثيراً من المغول والتتار من كفرهم وبعدهم عن الله تعالى . ومع قلة المتحولين من أصحاب الكتاب من اليهود والنصارى إلى الإسلام ، فيعود إلى أن هؤلاء قد وجدوا فى ظل الإسلام الأمان والاطمئنان ، وحرية المعتقد . ولا ننسى أن شعوبا كثيرة من أهل الكتاب قد دخلت فى الإسلام ، كالأقباط والبربر وبعض الترك والروم وعناصر من العرق الآرى.

وحفظ المسلمون بتاريخهم الطويل تراث الأمم السابقة العلمية والحضارية ، ولو كان غير المسلمين سادوا فى تلك الحقبة ، وتعرضوا لما تعرض له المسلمون من أعدائهم ، لبادت تلك المعارف والعلوم والحضارات . وقد حافظوا على تراث الهند وفارس واليونان والرومان والصابئة ، وقدموها بأسلوبها الأول

والمعدل ، فقد قدموا لهذه الحضارات الكثير من اجتهاداتهم ، وأزالوا منها ما كان يمجد الوثنية والتردى العقدى . إن التاريخ الإسلامى هو الصورة التطبيقية للإسلام ، وهو الطريقة الصحيحة على نجاح الإسلام كمنهج للحياة صالح لكل زمان ومكان . ولا يستطيع أن يفهم التاريخ الإسلامى أو أن يكتب فيه أو يدرسه دراسة صحيحة من هو جاهل بالإسلام وشريعته وعقيدته.

ومن مصادر الخطاب الإسلامى كل الذى خلفه بعد ذلك المسلمون فى حياتهم على الأرض من نتاج حضارى وعلمى وثقافى وفكرى وفنى ، فلدى المخاطب المسلم زخرا لو أراد أن يقضى عمره وعمر أجياله فى كشف الغطاء عنه لعجزت الأجيال وفنيت الآمال وبقى عطاء المسلمين فى خطابهم للعالم مقدرة وقوة وتنوعا وسموا وبلاغة وصدق لهجة ، وبيانا وسحرا ، يكفى لهذا الخطاب أن يكون القرآن الكريم رائد طريقه ومغير دربه ، ومظل مسيرته : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [لقمان] .

هذا تراث أمة الإسلام وكنوز معارفها ، وإبداع علمائها ، ونتاج قادتها وجنودها ومع أن الذى قدم إنما هو مقدمات فقط ، وإشارات فقط ، فالمحتوى أكبر كثيرا مما تقدم .

ونضيف اليوم لهذا المصدر، عطاء دعاة الإسلام فى الوقت الحاضر ، حيث إن هؤلاء الدعاة قد قدموا أيضا - فى فترة الصراع الذى خاضوه مع القوى التى تمكنت من عالم المسلمين وعقول المسلمين ، وحياة المسلمين ، وما زالوا فى هذا الصراع قائمين ، وعن أسلحتهم وما ملكت أيديهم مقدمين ، ويأتى فى رأس هذا العطاء أدبيات الجامعات الإسلامية ، ورواد نهضتها ومفكريها - نتاجا فكريا قادرا على مجاراة العصر وهجمته الشرسة على العقل الإنسانى عامة والعقل المسلم خاصة ، وقد سد هؤلاء كثيرا من الالتزامات التى أجبروا عليها ، وعاصر مفكرو الإسلام فى الوقت الحاضر هجمات ثقافية واردة

مدعومة بالكثير من الحجج والقوة . وتمكنوا بفضل الله تعالى من دحرها وتسفيه آراء أصحابها . ونقف اليوم وباحترام المتأدبين أمام هؤلاء المعلمين الذى زهت بهم هذه الحقبة من التاريخ المعاصر .

سادسا : الأدب الإسلامى :

ويأتى الأدب الإسلامى أدبا متميزا عن كل آداب الدنيا ، فقد ضبطه الإيمان وأبعده عن الفاحشة الإسلام ، وكان الأدباء والشعراء فى أكثر مواقعهم فقهاء وعلماء . ارتقوا بالأدب إلى مواقع لم يكن يعرفها فى آداب الأمم الأخرى ، وخرج الأدب من كونه تعبيرا عن الشهوات الإنسانية إلى أن يكون تعبيرا عن الشهوات الإنسانية إلى أن يكون تعبيرا عن الشعور الإنسانى بالانتماء إلى الإسلام ، وتعبيرا عن الإيمان الذى وصل عند البعض إلى السمو الروحى المتدفق ليكون تزكية للنفس وقهرا لها ، وشعورا بالانتماء إلى دوحة الإيمان الوارفة الظلال ، فنشأ الأدب الصوفى والذى يعتبر تجسيدا للمشاعر الفياضة فى حب الله تعالى وحب نبيه[1] وحب الصالحين ، وحتى أولئك الأدباء الذين دخلوا فى ملذات الدنيا من الشراب والمجون فى أشعارهم وآدابهم ، لكن الأكثر الأكثر منهم لم يخرج عن حدود الشرع وأوامره . والأخذ من الأدب الإسلامى للخطاب الإسلامى المعاصر بحاجة إلى وقفة ، ولكنها ليست وقفة حائر أو ضائع ولكن وقفة حائر لأخذ النافع .

يقول صاحب العقد الفريد: الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء ، المفرد بقدرته ، المتعالى فى سلطانه ، الذى لا تحويه الجهات ، ولا تنعته الصفات ولا تدركه العيون ، ولا تبلغه الظنون ، البادئ بالإحسان ، العائد بالامتنان ، الدال على بقائه بفناء خلقه ، وعلى قدرته بعجز كل شيء سواه ، المغتفر إساءة الذنب بعفوه ، وجهل المسيء بحلمه ، الذى جعل معرفته اضطرارا ، وعبادته اختيارا ، وخلق الخلق من بين ناطق معترف بوحدانيته ، وصامت متخشع لربوبيته ، لا يخرج شيء عن قدرته ولا يغرب عن رؤيته ، الذى قرن بالفضل

---

(١) إننا نبرأ من انحرافات الصوفية وأقوالهم فى قضايا بعيدة أصلا عن دوحة الأدب ولتدخل فى البدع والشركيات والانحراف عن حدود الإيمان والتوحيد .

رحمته ، وبالعدل عذابه ، والناس مدينون بين فضله وعذابه ، آذنون بالزوال ، آخذون فى الانتقال ، من دار بلاء إلى دار جزاء .

أحمده على حلمه بعد علمه ، وعلى عفوه بعد قدرته ، فإن رضى الحمد شكرا لجزيل نعمائه وجليل آلائه ، وجعله مفتاح رحمته ، وكفاء نعمته ، وآخر دعوى أهل جنته بقوله جل وعز: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [يونس] وصلى الله على نبيه الكريم الشافع المقرب الذى بعث آخرا ، واصطفى أولا ، وجعلنا من أهل طاعته وعتقاء شفاعته .

وبعد ، فإن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا بالأدب ، وتفلسفوا فى العلوم على كل لسان ، ومع كل زمان ، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ، وبذل مجهوده فى اختصار بديع معانى المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين وأكثروا فى ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخير إلى اختيار ، ثم إنى رأيت آخر كل طبقة ، وواصفى كل حكمة ، ومؤلفى كل أدب أعذب ألفاظا وأسهل بنية وأحكم مذهبا وأوضح طريقة من الأول ؛ لأنه ناقص متعقب والأول بادئ متقدم ، فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكما عادلا قاطعا ، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة النبت ، ذكية التربة ، يانعة الثمرة ، فمن أخذ نصيبه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة ، لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسك به [١] .

والشعر من أرقى فنون الأدب ، والشعر العربى من أرقى أشعار الأمم وأكثرها جزالة وأكثرها ضبطا وقواعد وأكثرها تنوعا وسلاسة وتعبيرا ، ولقد كانت أمة العرب أمة البلاغة والشعر ، ولم ينقطع الشعر العربى فى الإسلام عن الجاهلية كما يدعى بعض الكتاب ولكن مثله مثل أى عطاء كان فى الجاهلية

---

(١) شهاب الدين أحمد بن عبد ربه : العقد الفريد ، منشورات دار الهلال ، ط١، ١٩٨٦م ، ١/ ١٥ .

فهذبه الإسلام وأبعده عن الفاحشة والشهوانية ، ونواحى الإغراء وسمة أوصاف الجسد ؛ ليصبح الشعر الإسلامى نغمة المجاهدين ، وفخر الجند والمحاربين ، حتى نظم علوم الفقه والدين ، وخطاب الحكام والمحكومين ، ونغمة الأدباء والمتأدبين ، وروعة المجالس وحكمة الناس ، وبلاغة المتحاورين والمتناظرين ، وذخيرة عقل العلماء والمتعلمين ، به يستأنس العالم ، ومنه يقبس الحكيم ، وبه يستشهد أهل العقيدة .

ولم يبق فن من فنون الحياة إلا وكان للشعر العربى فيه نصيب ، حفظ الحفاظ عشرات الآلاف من الأبيات ، وصاغوا كثيراً من القواعد أبياتاً ، وإن كان فى شعر المسلمين بعض الهنات ، وعند بعض الصوفيين شطحات ، لا يعنى بأى حال من الأحوال الحط من قدر الشعر فى الإسلام . الذى اعتنى العلماء المسلمون به وحفظوا دواوينه ، ونسجوا على منواله ، ووصل إلينا من الشعر الإسلامى الذى يعتبر مفخرة وعزة وبلاغة وسمواً.

القسم الثالث
المصدر العملى للخطاب الإسلامى

المصدر العملى : يعنى عمل الأفراد والجماعات والهيئات التى تصدت لإصدار الخطاب الإسلامى .

أولا : الأفراد:

لقد ظهر إبان فترة الضعف والجمود وتأخر عطاء الخلافة ، وعجزها عن الثبات أمام الهجمة الأوروبية الشرسة فى القرنين التاسع عشر والقرن العشرين ظهر أفراد ومصلحون كان لهم دور بارز فى التصدى لهذه الحقبة من التخلف ، وقد أثبت بعض هؤلاء وجودهم القوى فى تلك الفترة ، وتمكنوا من أن يقدموا عطاء غير محدود فى صياغة الخطاب الإسلامى للعقل الإسلامى من جهة ، وللذود ضد الهجمة الشرسة التى غزت عقول المسلمين من جهة أخرى .

ولم يكن عطاء هؤلاء الناس متوازيا أو متساويا ولكنه كان متفاوتا ما بين القبول وبين السكوت وما بين الرفض ، وكان منهم العالم الذى وعى عصره وعرف أبعاد القضية التى تصدى للدفاع عنها ، ومنهم من كان ذا محدودية فى التصور ، مجزيا بالعطاء ، لكنه لم يتمكن من صياغة الخطاب المطلوب إسلاميا ، وإنما تمكن أن يحدد أيضا مقصده وليرفع عن كاهله قضية الدعوة والجهاد فى سبيل الله ، ومنهم من استخدمه الأعداء أداة فى اتجاهه لتحريف مقاصد الإسلام ، والدعوة إلى المسالمة وعدم رفع رايات الجهاد ضد الأعداء ، ومنهم ومنهم الكثير.

ولا يتسع المجال هنا للوقوف أمام كل هؤلاء ، أو الحديث المستفيض عن حياتهم وعطائهم وتأثيرهم المباشر وغير المباشر ، ولكننا يمكن أن نحدد المدارس التى كانوا ضمن توجهها ، أو القناعات الفكرية التى انطووا تحت راياتها . وإذا أردنا أن نعطى الحق لأهله ، والفضل لأصحابه ، فإن هؤلاء كانوا من الصدق والإيمان بمكان عال ، فقد نذروا أنفسهم وحياتهم وحالهم ومستقبلهم للإسلام ، وللذود عن الإسلام ، ولحماية جماعة الإسلام ، فى وقت كان الآخرون يندفعون بلا تفكير ولا وعى وراء الغرب الذى أخذ بعقولهم ، وسد مداركهم ، وأعمى أبصارهم ، فوجدوا كل ما جاءهم به هو الحق ، وكل ما عداه فهو باطل وكانت حقبة صعبة ، يجب أن نفكر بما كان يحيط بهم من تحديات ، لا أن نجلس الآن لنقيم أعمالهم من وراء المقاعد والتحديات المعاصرة لنا.

ثانياً: العلماء والمفكرون :

يمكن أن نحدد المدرسة التى انطوى تحت ظلها المفكرون والسياسيون والعلماء الذين تحدثوا فى مجالسهم (بالجامعة الإسلامية) ، وقد أظلت هذه المدرسة العديد من المفكرين الذين ساهموا بالحياة السياسية من جهة أو كتبوا فى قضايا إصلاح الدولة العثمانية ، أو إصلاح حال المسلمين المتردى . ويعتبر المنضوون تحت ظل (الجامعة الإسلامية) أكثر الرجال عطاء فى ذلك الوقت ،

ولقد قدموا حلولا لمشكلات وقتهم فى مجال اجتهاداتهم وتفكيرهم ولم ينجرفوا أو يؤخذوا بما قدمه الغرب ، وكانت معركتهم باتجاهين :

الأول: مع أصحاب التفكير الغربى الذين كثروا ، وكانوا فى الواقع أقرب كثيرا إلى الحكم وأكثر سعيا له ، ولقد وصلوا إلى مناصب الصدارة العظمى والوزارة والولاية ، ومن خلال هذه المواقع تمكنوا من أن يصلوا إلى الحكم ، وتحويل الدولة العثمانية إلى دولة علمانية. ويعتبر الإصلاحيون (أعضاء مدرسة الجامعة الإسلامية) قد انهزموا وتأخروا عن واجهة الصراع ، ولم يتمكنوا من أن يصمدوا أمام صراع الأحداث من هزيمة الدولة العثمانية فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨م وفرض شروط المهزوم عليها ، واجتزاء كل ممتلكاتها منها ، وسيطرتها على الأناضول حيث نافسوها عليها ، وأبرزوا عليها مصطفى كمال ليحتل لقب (أبو الأتراك) وينشئ تركيا العلمانية ، التى ما زالت حتى هذه الساعة فى صراع ليس بالسهل أمام الإسلاميين خلفاء رجال الجامعة الإسلامية ، أو المصلحين عموما.

وكما قلت : فإن هذه المدرسة كان لها جذور ، يرى أصحابها أن تستلم الدولة وسيلة إصلاحها من تراثها الإسلامى ، ونظمها العثمانية الشرقية إبان عصور قوتها وازدهارها . ورأى هذا الفريق من العلماء والمفكرين والسياسيين أن فساد الأنظمة العثمانية وما نتج عنها من تدهور فى كافة نواحى حياة الدولة لا يرجع إلى علة فى النظم نفسها ، وإنما إلى سوء تطبيقها وبداية التراجع عنها ، وأنه إذا ما أحسن التطبيق صلحت أحوال الدولة [١].

ومن هؤلاء المنادين ، أو قل : كان على رأس أصحاب هذا الاتجاه المفكر العثمانى:

أحمد جود باشا (١٨١٢ ـ ١٨٩٥م) ، الذى نشأ نشأة شرقية ، وتشرب الثقافة

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية : أحمد فهد بركات الشوابكة ـ مكتبة المنار ١٤٠٤ هـ ، ص٤٢ فما بعدها .

العثمانية إلى جانب اطلاعه على الثقافة والفكر الغربى .

الشيخ عاطف اللاسكليبى (١٨٧٦ ـ ١٩٢٦م)، من مواليد الأناضول ، ومن أسرة عريقة فى العلم والنسب ، تصدى للتدريس فى جامع الفاتح بعد أن أتم دراسته الدينية فى استانبول إلى جانب كتاباته فى مجلتى : (بيان الحق) ، (صراط مستقيم) أشهر المجلات الإسلامية وقتها .

أحمد نعيم بابا زاده (١٨٧٦ ـ ١٩٣٤م) ، ولد أحمد فى بغداد من عائلة كردية حيث درس فى بغداد واستانبول . تناول فى كتاباته أهمية الفكرة الإسلامية ، ودور الجامعة الإسلامية فى الحفاظ على وحدة المسلمين وبناء قوتهم . ويبين فى المقابل خطر الفكرة القومية فى تفتيت هذه الوحدة وإضعافها . وتصدى لدعاة القومية التركية بعد أن قسمهم إلى مجموعتين:

١- القوميون الخلص(المتطرفون) .

٢- القوميون الإسلاميون.

الشاعر محمد عاكف آرصوى (١٨٣٣ ـ ١٩٣٦م) ، ولد فى استانبول ، من أب ألبانى (أرناؤوطى) وأم بخارية مهاجرة ضمن أسرتها إلى تركيا ، وكان والده عالما دينيا ، أجاد عاكف الشعر وله ديوان ضخم ، وساهم بشعره فى ترسيخ التيار الفكرى للجامعة الإسلامية ، وقد أمل محمد عاكف إصلاح حال المسلمين بالرجوع إلى تعاليم الإسلام والتمسك بوحدته ، ففى القرآن صلاح الدين والدنيا ، ولن تقوم قائمة للمسلمين عامة والترك خاصة إلا إذا أقاموا الدين ووقفوا عند حدوده ، ومعاداة القومية وبيان خطر العنصرية ، وهو يوجه بهذا المعنى أشعارا إلى بنى قومه الألبانيين عندما بدؤوا يطالبون بالانفصال عن الدولة العثمانية.

بديع الزمان سعيد النورسى (١٨٧٦م ـ ١٩٦٠م) ، ولد فى الأناضول من أسرة كردية وأتم دراسة علوم النحو والصرف ولم يصل سن البلوغ . بدأ دعوته للإسلام فى ظل الجامعة الإسلامية ، ولاقى بحكم مواقفه المعارضة للاتحاديين

مضايقات كثيرة من نفى وسجن وتعذيب ، ولكن هذا لم يثنه عن الاستمرار فى مطالبته بتحكيم الشريعة الإسلامية واستبعاد كل ما سواها ، يقول : لو أن لى ألف نفس لما ترددت بفدائها فى سبيل حقيقة واحدة وحكم واحد من أحكام هذه الشريعة ، إنها طريق السعادة والعدالة والفضيلة المحضة .

وفى مجال دعوته للجامعة الإسلامية ، زار سعيد النورسى دمشق ، وخطب فى مسجدها الأموى خطبة اشتهرت باسم « الخطبة الشامية » ، كانت عبارة عن برنامج إصلاحى شامل لأحوال المسلمين(١) .

وبقى أتباع للشيخ النورسى حتى الآن لهم منهجهم ودعوتهم ، وهم منتشرون فى جميع أنحاء تركيا ومناطق تواجد الأتراك فى العالم ويمكن أن يحسب مع أصحاب الحركات الإصلاحية الإسلامية ، كالوهابية والمهدية والسنوسية ، فإن تلك الأسماء كانت الجذور الفكرية للتيار المنادى بالجامعة الإسلامية ، والذين كان لهم فضل فى مجال الدعوة والتأليف والتقويم لهذا الاتجاه ومنهم :

الشيخ أبو الهدى الصيادى (١٨٤٩ ـ ١٩٠٩م) ، من أشهر علماء الدين فى عصره ، ولد فى خان شيخون ، وهى قرية من أعمال حلب ، أتقن علوم الفقه والتفسير والنحو ، تقلب فى الوظائف حتى أصبح بمرتبة « مستشار الملك » عند السلطان عبد الحميد(٢) .

لقد كان أبو الهدى الصيادى من أنشط العاملين للجامعة الإسلامية ، وقام

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ص ٤١ ـ ٥٧ باختصار وتصرف .

(٢) تحامل الكثيرون على الصيادى للمكانة التى وصل إليها عند السلطان عبد الحميد . وأورد محمد كرد على فى مذكراته ما يفيد ، ومن خلال الوثائق أن أبا الهدى لم يكن مع السلطان فى مقام المنافق والمتجسس كما زعم أعداؤه ؛ بل فى مقام الناصح المرشد ، وأنه لم يخاطب السلطان مدة اتصاله به إلا بما فيه نفع الدولة ورعاياها .. حاشية ص٧٠ حركة الجامعة الإسلامية .

بوضع رسالة بعنوان « داعى الرشاد لسبيل الاتحاد والانقياد » بين فيها أهمية الجامعة الإسلامية فى حياة المسلمين فى تاريخهم الطويل . ويذكر أهمية الاتحاد فى حياة المسلمين وثماره ومزاياه مؤكدا أنه ما سعد المسلمون وأفلحوا ، إلا حين اتحدوا وتحابوا ، وما شقوا وضعفوا إلا حين انتشرت بينهم الفتن والدسائس وتفرقوا شيعا وأحزابا .

عبد الرحمن الكواكبى (١٨٥٤ - ١٩٠٢م) ، من أسرة عريقة فى حلب ، كان والده الشيخ أحمد مسعود الكواكبى أمينا للفتوى فى مدينة حلب ومدرسا فى مسجدها وفى المدرسة الكواكبية ، شغل عبد الرحمن عدة مناصب حكومية منها: ترأسه فى عام ١٨٩٤م كتاب المحكمة الشرعية ، وغرفة التجارة والزراعة والصناعة فى حلب . رأى الكواكبى أن تأخر المسلمين فى جميع الميادين ناتج عن تدهور النظم السياسية لديهم ، وأكد أن العلاج لهذا الداء يوجب العودة إلى نظام سياسى ذى طابع ثورى ، كما كان فى عهود الإسلام الأولى ، وقد اشترط الكواكبى لنجاح هذا النظام شرطا مهما هو بعده عن الاستبداد .

السيد محمد رشيد رضا ، ولد فى القلمون على بعد ثلاثة أميال من طرابلس الشام ، تلقى العلم على أبرز العلماء ، ومنحه شيوخه العالمية فى سنة ١٨٩٧م اطلع على الأعداد الأولى لمجلة (العروة الوثقى) التى كان يصدرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وكانت هذه الأعداد كما يقول السبب فى توجيه حياته وجهة جديدة . رغب بالاتصال بجمال الدين الأفغانى ، لكنه لم يوفق لوفاة الأول ، فارتحل إلى مصر واتصل بمحمد عبده ولازمه ، وأصدر مجلة المنار أسبوعية ثم شهرية ، ويريد من وراء إصدارها متابعة نهج العروة الوثقى . جعل محور نشاط مجلته إعادة اهتمام المسلمين برابطتهم الدينية وتقوية جماعتهم الإسلامية ، منبها إلى أن الاجتماع أمر فطرى طبيعى فى النوع البشرى ، كان لمحمد رشيد رضا نشاطا ملحوظا فى المجال الإسلامى ويعتبر من أكبر رواد دعوة الوحدة الإسلامية .

عبد القادر المغربى (١٨٦٧ ـ ١٩٥٦م) ، ولد عبد القادر فى اللاذقية فى أعمال سوريا ، حيث كان أبوه قاضيا فيها ، ثم انتقل إلى طرابلس الشام واستقر بها ، واتصل بالعروة الوثقى واطلع على جميع أعدادها (١٨) عددا ، واستنسخها مع صديقه محمد رشيد رضا ، التقى بجمال الدين الأفغانى وسافر إلى مصر والتقى بمحمد عبده . كتب بالمؤيد وعاد إلى طرابلس وأنشأ جريدة (البرهان) . دارت سياستها حول الجامعة الإسلامية والعالم الإسلامى ، انضم إلى الشيخ عبد العزيز جاويش والأمير شكيب أرسلان فى المدينة المنورة وأسسوا جامعة باسم « جامعة دار الفنون » لكن ظروف الحرب لم تساعد على إنجاز الفكرة .

رفيق العظم (١٨٦٧ ـ ١٩٢٥م) ، عالم بحاثة من رجال النهضة الفكرية فى سوريا ولد فى دمشق ، ثم رحل إلى مصر واستقر فيها . كان رفيق العظم من بين الداعين إلى الجامعة الإسلامية والعالم الإسلامى ، والمؤمنين بأهمية اتحاد كافة رعايا الدولة العثمانية . بسط أفكاره فى كتابين « التأليف بين الترك والعرب » و « الجامعة الإسلامية وأوروبا » وأورد فيها جميع آرائه وأفكاره حول الجامعة الإسلامية والوحدة الإسلامية .

الأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩-١٩٤٦م) ، من مواليد الشويفات (لبنان) حفظ القرآن الكريم مبكرا ، ودرس العربية والفرنسية ودرس الفقه وحضر دروس محمد عبده ، والتقى بجمال الدين الأفغانى ، وانتخب نائبا من حوران فى مجلس المبعوثان ، وكان حريصا من خلال مؤلفاته على وحدة المسلمين والمطالبة المستمرة بإصلاح أحوال المسلمين التعليمية والاجتماعية [١].

ونقف قليلا مع :

جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ـ ١٨٩٧م) ، وهو محمد بن صفدر الحسينى ،

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ، مصدر سابق ، ص٦٩ ـ ٩٣ باختصار وتصرف .

ولد فى أفغانستان ، ونشأ فى كابل ، وتلقى العلوم العقلية والنقلية فيها . سافر إلى الهند وحج عام ١٢٧٣هـ ، وعاد إلى وطنه وأقام فى كابل . انتظم فى سلك رجال الحكومة فى عهد دوست محمد خان ١٧٩٣ ـ ١٨٦٣م ، ثم رحل إلى الآستانة مارا بالهند وقصد مصر ، وساهم فى نهضتها الإصلاحية الدينية والسياسية ، وتتلمذ عليه كثيرون منهم: الشيخ محمد عبده . نفى من مصر فرحل إلى حيدرآباد ثم إلى باريس ، وأنشأ فيها مع محمد عبده جريدة العروة الوثقى ، ثم دعاه السلطان عبد الحميد إلى الآستانة وظل فيها حتى وفاته [١] ، أنشأ فى مصر الحزب الوطنى والتف حوله الشباب حتى أصبح قوة كبيرة جدا دخلت فى تعداد الأساطير .

الإمام محمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ، ولد فى مصر من عائلة آل التركمانى ، درس بالأزهر وفيه تصوف وتفلسف ، عمل بالتعليم وكتب بالصحف ولا سيما « الوقائع المصرية » . أجاد الفرنسية واتهم بمساندة ثورة أحمد عرابى . سافر إلى باريس وأصدر مع أستاذه الأفغانى جريدة « العروة الوثقى » . عاد إلى بيروت واشتغل بالتدريس ودخل مصر عام ١٨٨٨م فتولى منصب القضاء ، ثم عمل مستشارا فى محكمة الاستئناف ، ومفتيا للديار المصرية إلى أن توفى فى الإسكندرية ودفن فيها عام ١٩٠٥م.

كانت قضية الجامعة الإسلامية من أبرز القضايا المطروحة فى السياسة الدولية وعلى صعيد العالم الإسلامى فى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر وهى الفترة التى اكتمل فيها نضج الإمام محمد عبده علمياً وفكرياً وسياسياً .

أنكر محمد عبده الحالة التى أصبح عليها عامة المسلمين ، وما أصابهم من تفكك وضعف ، يستوى فى ذلك من بعدت ديارهم فى الشرق كالهنود وشعوب ما وراء النهر وقبائل التركمان ، ومن كان تابعا لدولة الخلافة العثمانية

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ، مصدر سابق ، ص١٢٦.

مما أغرى بهم أعداءهم وأطمعهم فى بسط نفوذهم على أجزاء واسعة من ديارهم .

وقد أرجع محمد عبده السبب فى كل هذا إلى ما سرى بين المسلمين من ضعف فى العقيدة ، وعدم اعتبار للدين ودوره فى وحدة المسلمين . إلى جانب ما يحاوله بعضهم من إحلال دعوى محبة الوطن والوطنية كبديل للرابطة الدينية بين المسلمين.

حدد محمد عبده الفئات المسؤولة عن هذا التردى فى حال الأمة الإسلامية ، فسمى المجموعة الأولى بـ " أدعياء السلطة الدينية " . وهم الذين انقادوا بالتقليد إلى كهانة الديانات الأخرى ، فادعوا لأنفسهم سلطانا دينيا لم يجعله الإسلام لغير الله ، ثم استخدموا هذا السلطان فى تجريد الأمة من حقها فى النظر والاجتهاد والتجديد ، فأضفوا القداسة على غير المقدسات ، بل وعلى ما ترفضه المقدسات.

أما الفئة الثانية ، فسماهم « أنظار التقريب » ، وهم أولئك الذين يسمون بالمتمدينين والمتنورين ، والذين يرون لبلادهم أن تصبح قطعة من أوروبا ، فهم على النقيض من أهل الجمود وأنظار العصور المظلمة . فأهل الجمود يرون فى العقل كفرا وفى المنطق زندقة ، وفى الحضارة الحديثة نقضا للإيمان بالدين ، وأنصار التقريب يرون فى النقل تخلفا ، ويرون فى التراث قيودا تشد الأمة إلى العصور المظلمة وتحول دون تقدمها ، ومن ثم لا يرون للتقدم سبيلا إلى سبيل الحضارة الأوروبية الغازية المنتصرة التى أدهشت العقول وبهرت منهم الأبصار.

ولقد قاد نفور هؤلاء المتغربين من الإسلام إلى إهمال رباط الجامعة الإسلامية بين بلاد الإسلام وأقطاره وشعوبه ، فقدموا الوطنية كبديل لرابطة التضامن من أبناء الملة والدين ، وهو ما يحقق خدمة عظمى للاستعمار [١].

---

(١) حركة الجامعة الإسلامية ، مصدر سابق ص١٣٤ ـ ١٣٥ بتصرف .

ومن دعاة الوحدة الإسلامية والجامعة الإسلامية والذين كان لهم هذا الاتجاه وساروا على طريقة من سبقهم :

مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨م) ، محمد فريد (١٨٦٨ ـ ١٩١٩م) [١].

ولا يمكن أن نفصل تماما بين هؤلاء وبين من سبقهم ، فإن القضية السياسية ركن من أركان التفكير الإسلامى ، لا يستطيع أى عالم أن يتهرب من التوجه السياسى حتى بالقول إن لم يكن بالفعل ، وإن قضية العالم الإسلامى المضطرب فى المائة سنة السابقة وما سبقها قليلا وما سيلحقها ، تقود كل مسلم إلى أن يخوض بأى شكل من الأشكال فى غمارها ، وحتى الذين يجنبوا العمل السياسى فإنهم اقتيدوا إلى معتركها بإرادتهم وبغير إرادتهم ، وما زال العلماء اليوم وبالأمس وإلى المستقبل هم صمام الأمان بالنسبة لانحراف السياسة أو استئثارهم بالعمل السياسى ، وإبعاد العلماء عن هذا المعترك بحجة أن العلماء لا يفهمون بالسياسة .

ومن خلال استعراض موجز بسيط للعلماء السياسيين ، نجد أنهم كانوا هم الأكثر حملا لهمّ الأمة وما أصابهم من تدهور وتخلف وجهل وضعف . ولا ننفى بحال هنا أن العلماء من غير حملة الفكر الإسلامى هم أصحاب الاختصاص فى العمل السياسى .

فقد اتضح من خلال مجريات التاريخ : أن هؤلاء المدعين للعلم أو المتنطعين أمام الحكام ، أو ممن حكموا بالفعل قد أردوا الأمة إلى الهلاك ، ولولا علماء الإسلام لكان الوضع أكثر تعقيدا وأكثر تدهورا ومن هنا نفسر مغزى التماحق

---

(١) راجع : مختصر سيرة الرجلين من المرجع السابق ١٤١ ـ ١٥٠ .

راجع عن أفكار هؤلاء الدعاة واتجاهاتهم الفكرية والسياسية والعقدية كتاب : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث . د. فهمى جدعان ـ إصدار المؤسسة العربية للدراسات والنشر . فقد قدم المؤلف دراسة متصله تستحق المراجعة والدراسة ، وراجع أيضا كتاب محمد عمارة : (معالم المنهج الإسلامى) إصدار اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر .

والاحتكاك بين علماء الأمة والحكام السياسيين ، وحتى لا نسترسل بالشواهد ونخرج قليلا عن الخط المرسوم ، نذكر أن العلماء الذين عاشوا فى هذه الفترة ولم يكن لهم كبير احتكاك بالعمل السياسى ، كان همهم الأول الحفاظ على تراث الأمة من الاندثار بعد أن غزت عقول المفكرين أفكار الغرب ونظرياته ، ووصل التعامل مع هذه الأفكار حد الفتنة ، فقد حافظ هؤلاء على تراث الأمة وكنزها العظيم ، وبالوقت نفسه حافظوا على تدين الناس وأخلاقهم ، وأظهروا مفاسد الغرب وحضارة الغرب .

وإذا وجدنا أن الصف المعادى لهؤلاء كانوا من أهل الكتاب المتأثرين بالفكر الغربى ، المناهض للفكر الإسلامى الداسين فى تراث الإسلام الترهات والأفكار المغلوطة أمثال : فرانسيس مراش الحلبى ١٨٣٦ ـ ١٨٧٣م ، ورزق الله حسون ١٨٢٠ ـ ١٨٨٠م ، وجبرائيل دلال الحلبى ١٨٣٦ ـ ١٨٩٢ ، وشبلى الشميل ١٨٥٠ ـ ١٩١٧م ، ونجيب العازورى ... ـ ١٩١٦م وجرجى زيدان وكثير من الأسماء الأخرى التى انطوت تحت هذه المظلة كانوا دعاة قومية وتحرر وتبعية للغرب ، وضد الحركة الإسلامية والجامعة الإسلامية وما زال تأثيرهم يتفاعل ويمتد حتى الآن فى ظل الدعم والإعلام الغربى والشرقى العميل والمقلد[1] .

لقد كان للأزهر الشريف ولدور العلم فضل كبير فى استانبول ودمشق وبغداد والقاهرة وبيروت وبيت المقدس فضل كبير فى هذا المضمار ، فقد تبنت هذه الدور والجوامع والجامعات مهمة الحفاظ على تراث الإسلام والذود عنه والاجتهاد بالحدود الممكنة فيما يوجب الاجتهاد فيه ، وكان خريجو هذه المدارس والمعاهد والجامعات عماد حروب التحرير فى جميع المناطق والبلاد التى احتلها المستعمر قبل سقوط الدولة العثمانية وبعد سقوطها ، وما لحق ذلك من تجزأة ووصول العلمانيين وأبناء الأقليات الدينية والعرقية والقومية إلى سدة

---

(١) راجع عن سيرة هؤلاء : حركة الجامعة الإسلامية ص٩٧ ـ ١١٠ وبعض الكتب الأخرى .

الحكم لمتابعة السياسة التى رسمها الغرب للشرق قبل أن يسحب جنوده منه ، فقد خلف وراءه تركة قاسية جدا . جهالاً فى مجال الحكم والدين والسياسة واتخذهم أتباعاً وأدوات لاستمرار نفوذه فى العالم الإسلامى ، ولقد خرجت هذه المؤسسات أساطين وعلماء ومشاهيرهم ومؤلفيهم ، ولا ننكر أن هذه المؤسسات كانت على حالة من التخلف والتمسك بالتقاليد مما جعل العلماء أنفسهم يسعون لتخليصها مما يعيق تقدمها وتأدية رسالتها لخدمة الإسلام ، وقد برز من هؤلاء العلماء الكثير ممن اختص بالتفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والشعر وغير ذلك من فنون العربية .

ونورد هنا بعض الأسماء فقط لنبين أن لهؤلاء كان الدور الفاعل أيضا فى إنهاض الأمة وإظهار تراثها والمحافظة عليه.

١- **جمال الدين القاسمى** (١٨٦٦ ـ ١٩١٤م) محدث ، فقيه ، أصولى ، مفسر ، مرب مصلح من مواليد دمشق لأب كان قد غلب عليه شعر أهل عصره . عاش فى الشام وفى مصر والتقى بالعديد من العلماء والفقهاء والسياسيين وغيرهم .

٢- **أبو الصفا المالكى** (١٨٢٩ ـ ١٩٠٧م) أحد شيوخ القراء بدمشق ، أخذ القراءات العشر عن طريق الشاطبية والدرة والطيبة عن الشيخ أحمد الحلوانى وعن حافظ باشا الفريق التركى نزيل دمشق .

٣- **أحمد الخانى** (١٨٣٦ ـ ١٨٩٩م) عالم فاضل ، أخذ أكثر العلوم العقلية والنقلية عن والده وعن الشيخ محمد الطنطاوى وشهدوا له بالصلاح .

٤- **محمد الطيبى** علامة، بارع ، فرضى ، رياضى ، فلكى(١٨٣٠ - ١٨٩٩م) فقد تلقى العديد من العلوم فى الفقه واللغة والقراءات والفرائض والجبر والهندسة ، وغير ذلك .

٥- **عبد الحكيم الأفغانى** (١٨٣٥ ـ ١٩٠٨م) علامة ، محقق ، فقيه ، أصولى ، زاهد ، نزيل دمشق ، ولد فى قندهار من بلاد الأفغان ، وغادرها شابا طالبا

للعلم ، قصد الهند ، ثم جاور فترة بالحرمين الشريفين وبيت المقدس حتى نزل دمشق ، فأقام فى مدرسة دار الحديث الأشرفية بغرفة صغيرة متواضعة جدا ما يقرب من ربع قرن إلى أن توفى فيها ، عرف عنه تقواه وزهده الشديدان حتى ضرب بهما المثل ، ونقلت فيهما قصص كثيرة ، يكتفى بالقليل من القوت ولا يجيب أحدا إلى وليمة ولا يأكل طعام أحد.

٦- **علاء الدين عابدين** (١٨٢٨ـ ١٨٨٨م) فقيه حنفى ، مشارك ، أمين فتوى ، أخذ عن والده وعن مشايخ والده وزملائه ، تتلمذ على الكثير من العلماء وبمختلف العلوم . وتقلب ببعض المناصب الإدارية المتعلقة بالفتوى . من مؤلفاته : إكمال حاشية والده المشهورة والمعروفة بحاشية ابن عابدين ، سماها « قرة عيون الأخبار بتكملة رد المحتار على الدر المختار » وله العديد من المؤلفات الأخرى .

٧- **محمد بدر الدين الحسنى** (١٨٥٠ ـ ١٩٣٥م) محدث الديار الشامية الأكبر ، أستاذ علماء الشام خاصة ، وشيخهم المعتقد . من أصل سبتى مغربى مراكشى ، ينتهى نسبه إلى الشيخ الصالح عبد العزيز الشباع الذى ينتهى نسبه بدوره إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما . ولى علم الحديث اهتمامه بعد أن انقطع سبع سنين فى بيت العلم والتفقه . قيل : حفظ كتب الحديث الستة مع المشهورة الشعرية المختلفة ، والرجل أكبر من ترجمة بسيطة جدا له هنا .

٨- **بكرى العطار** (١٨٣٤ ـ ١٩٠٢م) علامة الشام ، المفسر ، المحدث ، الفقيه الأصولى ، النحوى ، المنطقى ، الزاهد ، العابد ، ولد لأسرة نجيبة أخرجت لأهل الشام غير واحد من أهل العلماء ، فأبوه وجده من كبار العلماء ، حفظ القرآن الكريم مبكرا والأربعين النووية عن أبيه ، زار مصر بطريق عودته من الحج والتقى بعدد من علماء المشرق والمغرب ، وكان العلماء عندما يمرون بدمشق يأتون لزيارته فيروون عنه ويروى عنهم ، ويخبرونه أثر التفسير والحديث بين العشاءين فى الجامع الأموى ، ثم تولى تدريس البخارى فى التكية السلمانية فى

شهرى رجب وشعبان كل خميس ، وكان لهذا الدرس شأن عظيم يلتقى فيه عدد كبير من علماء دمشق وطلبة العلم فيها ، شغله التعليم عن التأليف فلم يترك كتبا ولا رسائل . توفى بوباء الكوليرا ٥ شوال ١٢٢٠هـ .

٩- **محمد المبارك الجزائرى** (١٨٤٧ – ١٩١٢م) عالم ، أديب لغوى ، صوفى زاهد ، ولد فى بيروت وانتقل إلى دمشق ، وهى الهجرة الأولى إلى الشام من الجزائر برئاسة الشيخ محمد مهدى السكلاوى جده لأمه ، وكان برفقته حوالى ٥٠٠ أسرة جزائرية . طلب العلم وجد فى طلبه وزهد فى الدنيا . أخذ من التصوف أحسن ما فيه ، وهو باب الأخلاق ، وطرح ما فيه من فضول وكسل وقلة عمل وتخريف لايقول به الشرع ، وكان تصوفه ممزوجا بروح السنة وحكمة البلغاء ، يشبه قدماء المتصوفة ، نفع من أخذوا عنه ، وما تطاول إلى ما ليس فى طاقته . له العديد من المؤلفات وقد أشرف على تربية أبناء عبد القادر الجزائرى حيث علمهم التجويد والعلوم الأخرى .

١٠- **محمد سعيد البانى** (١٨٧٧ ـ ١٩٣٣م) من أسرة دمشقية عريقة ، اتصل بالشيخ طاهر الجزائرى الذى قربه وشجعه وأعجب به كل الإعجاب ، تولى منصب الإفتاء فى عدد من أقضية دمشق ، واتهم أثناء الحرب العالمية الأولى بأنه من طلائع الثورة العربية ، دافع عن نفسه ونجح ، ولما دخل الجيش العربى دمشق عاد إليها ، فعين فى منصب مفتى الجيش العربى ، وكان آخر أعماله أمينا عاما للهيئة الدينية لرئاسة علماء الدين . وقف ضد ترجمة القرآن الكريم إلى التركية ، ونبه إلى استحالة ذلك مبينا إعجاز القرآن الكريم فى بيانه العربى .

هاجم الدعوة إلى إصلاح الكتابة العربية [١] متعجبا من الجرأة على كتاب الله

---

(١) قام بالدعوة إلى إصلاح الحروف العربية ، مدير كلية الطب فى دمشق إسماعيل حقى اليلاسى وأسس سنة ١٣٣٠ هـ جمعية باسم « تعميم معارف وإصلاح حروف جمعيتى » يتلخص مشروعه أن تفصل حروف الكلمة الواحدة على أن يلحق بكل حرف منها أحد حروف المد بحسب حركاته مع وضع علامات للمد وغيره فى صور اللفظ ، مما يجعل الكتابة وإن حافظت على رسم الحروف العربية تأخذ شكل الكتابة بالأحرف اللاتينية غير الموصولة . وأنجزت الجمعية طباعة جزء (عم) بالشكل الجديد من هذه الحروف التى كانت تعمل على نشرها وتعميمها فى سائر أنحاء الدولة . =

كان سلفى المذهب ، بمعنى : أنه يريد أن يكون قويا والأمة متيقظة ، كما كان الشأن عليه أيام السلف لا بالمعنى الذى أخذته هذه الكلمة فيما بعد[١].

ثالثا : علماء ودعوات :

إذا لعب الأفراد والعلماء والشيوخ والمفكرون دورا بارزا فى صياغة الخطاب الإسلامى وتقديمه فى وقته للنهوض بالأمة الإسلامية فإن هناك أفراداً تمكنوا أن يؤسسوا حركات ارتبطت بهم ، واستمرت بعدهم ، وكان لهم دور واضح أيضا فى صياغة الفكر الإسلامى ، ومن خلال منظورها - كل واحدة - إلى ما تصدت للعمل فى محيطها ، فإن هذه الحركات قد نجحت بالفعل فى بقع محدودة من العالم الإسلامى ، وتمكنت هذه الحركات أن تكتسب لها أتباعا ومؤيدين ومجاهدين ؛ لأنها خاضت حروبا صعبة مع التحديات التى وقفت فى وجهها ، واضطرت لرفع السلاح لمحاربتها ، ولعل الدولة العثمانية والتى كان من المفترض أنها حامية الإسلام قد اصطدمت بعض هذه الحركات الإصلاحية مع الدولة مباشرة ، أو بالواسطة مثلها مثل الطامعين الذين قوى سلطانهم فى بعض المناطق ، فحاربوا الدولة أو استغلال ما تحت أيديهم . ولا يهمنا فى الواقع من عمل أولئك الطامعين ، على الرغم من أن باحثين كثيرين يعتبرونهم من رواد النهضة الحديثة ، مثل محمد على ، والبايات ، والدايات وبعض الأمراء الآخرين ، ونترك للتاريخ الحديث عنهم والحكم عليهم.

من هذه الحركات :

١- الحركة الوهابية السلفية والشيخ محمد بن عبد الوهاب :

ظهرت الحركة الوهابية فى إقليم نجد بالجزيرة العربية على يد الشيخ محمد

= (الحاشية والمتن من كتاب تاريخ علماء دمشق فى القرن الرابع الهجرى ج١ / ص٤٦٥ - ٤٦٧ بتصرف .

(١) هذه المعلومات من المصدر السابق ، طبع دار الفكر ، ويحسن الرجوع إلى الكتاب المذكور لفيض ما حوى من علماء دمشق وغيرهم من العلماء ، وقد توخينا التلخيص الشديد والتصرف لما يتطلبه البحث . والاختيار كان بدون ترتيب مسبق . (المؤلف).

ابن عبد الوهاب التميمى النجدى (١٧٠٣- ١٧٧٩) فى وقت امتلأت فيه الحياة الدينية والاجتماعية فى العالم الإسلامى عامة والجزيرة العربية خاصة بالبدع والضلالات والخرافات التى تصرف المسلم عن جوهر دينه ، وترمى به فى مقامات الشرك والإلحاد التى عاش فيها العرب أيام الجاهلية الأولى ، وتعتبر الحركة الوهابية أول رد فعل دينى على مفاسد وانحلال المجتمع العربى الإسلامى فى العصر الحديث .

نادى محمد بن عبد الوهاب بدعوته تلك متأثرا بالإمام أحمد بن حنبل ١٦٤ ـ ٢١٤هـ ، وابن تيمية ٦٦١ ـ ٧٥٨هـ وتلميذه ابن القيم ٦٩١ ـ ٧٥١هـ . وزار مكة والمدينة وطاف بالحجاز والإحساء ، وزار البصرة وبغداد ودمشق ، واتصل بعلماء الإسلام وأخذ عنهم ، وقام بتأليف عدة كتب ورسائل فى التوحيد والفقه والسيرة والحديث ، ضمنها آراءه فى الإصلاح التى تتلخص بما يلى :

١- العودة بالإسلام إلى سيرته الأولى الصافية النقية .

٢- تعميق وحدانية الله المتمثلة فى شهادة أن لا إله إلا الله .

٣- إنكار تأويل القرآن الكريم وتفكير كل من يقول بذلك ، معتمدا بذلك على قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧] .

٤- فتح باب الاجتهاد وتحرير الفكر الدينى عند المسلمين .

٥- التقشف فى العيش وإجبار المسلمين على القيام بأركان الإسلام .

٦- هدم القبور والنصب والمقامات ، والتحرر من الارتباط بأى من هذه الشركيات .

أكد على الأخذ بالدليل ، واتصل بالأمير محمد بن سعود حاكم الدرعية ، وقاما معا بنشر العقيدة ومحاربة البدع وهدم القبور ، واصطدمت الحركة مع الدولة العثمانية نظراً لقيامها بأعمال عسكرية ومحاربة ولاة الدولة وجنودها ومؤسساتها . وأقامت الدولة السعودية الأولى مما دفع العثمانيين إلى تكليف

محمد على بالقضاء عليها ، فشن محمد على عدة حملات على الجزيرة العربية ، كان آخرها القضاء على الحركة ١٨١٨م ، وعاد السعوديون مرة أخرى بزعامة عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود من منفاه بالكويت ، واستولى على الرياض عنوة وأسس الدولة السعودية الوهابية من جديد عام ١٩٠١م ومتمثلة الآن بالمملكة العربية السعودية التى تعتبر التجسيد الحى القائم للحركة .

تفرع عن الحركة الكثير من الدعاة الذين انتشروا فى أنحاء العالم الإسلامى متأثرين برعايتها وخاصة أثناء موسم الحج ، وبدأت عملية إصلاح على نطاق واسع بين المسلمين فى كثير من أقطار العالم الإسلامى . وليست الحركة الآن على توجه واحد ، بل تعددت مدارسها ، وتعتبر السعودية إحدى هذه المدارس فى الوقت الحاضر [١] .

٢- الحركة السنوسية والشيخ محمد بن على السنوسى (١٧٨٧ـ ١٨٥٩م) :

مؤسس هذه الحركة هو سيدى محمد بن على السنوسى ، المولود فى إحدى قرى الجزائر ، انتقل إلى ليبيا معلما ومرشدا ، ومع رفض الحركة السنوسية المبدئى للخلافة العثمانية ؛ إذ إنها تحصر الإمامة فى قريش ، إلا أنها وأمام الأخطار الأوروبية المسيحية المتنامية التى كانت تحيط بالأمة الإسلامية آنذاك ، لا سيما فى شمال إفريقيا قد اعترف الزعيم السنوسى بمزايا الوجود العثمانى كحاجز ضد مزيد من التوسع الإيطالى والفرنسى فى ليبيا وشمال إفريقيا عامة ، وظل على ولائه للدولة العثمانية رغم استقلال حركته الفعلى عنها .

تتلخص أهداف الحركة السنوسية فى الآتى :

١- محاربة الانحلال الاجتماعى والفساد الإدارى والسياسى وإحياء الشريعة الإسلامية .

---

(١) دراسات فى المجتمع العربى ـ عدد من أساتذة جامعة الإمارات . الطبعة الأولى ١٩٨١م ص ١٠٨ فما بعد . انظر كتابنا: حاضر العالم الإسلامى ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٩٧م ، ص٩٢ فما بعد .

٢- العودة بالإسلام إلى نقائه وبساطته الأولى .

٣- الاعتماد على كتاب الله وسنة نبيه فى الأحكام الدينية .

٤- فتح باب الاجتهاد .

٥- تنقية الإسلام مما علق به من بدع وضلالات .

بلغت الحركة ذروتها فى عهد محمد المهدى ١٨٥٩ ـ ١٩٠٢م ، وانتشرت انتشارا واسعا فى شمال إفريقيا وغربها ووسطها ، وكانت الواحات مركزا للزوايا السنوسية ومنها انتشرت إلى الأنحاء المتفرقة من إفريقيا .

من منجزاتها :

١- إصلاح المجتمع الليبى ومحاربة الاستعمار الإيطالى بشراسة وثبات ، وعرف أتباعها بإيمانهم وتضحياتهم « رهبان فى الليل فرسان فى النهار »، ومن شيوخها عمر المختار . نظمت سلوك الأفراد ووجهتهم للعمل والبناء والإنتاج ، وأشاعت فيها روح التعاون والإخاء والسلام .

٢- نشر العلم والمعرفة في الصحراء الإفريقية بإنشاء الزوايا المتعددة التى كانت تعتبر مركزا ثقافيا مهماً .

٣- نشر الإسلام بين القبائل الوثنية فى الصحراء الكبرى وغرب ووسط إفريقيا ، وأصبحت الواحة مركزا للدعوة السنوسية ، وأخذ الناس يتقاطرون عليها حتى غدت مركزا إسلاميا يضارع الأزهر الشريف فى أهميته .

انتهى النفوذ السياسى والدينى للحركة بانقلاب الفاتح من سبتمبر عام ١٩٦٩م ، الذى قضى على نشاط الحركة وطرد آخر رؤسائها الملك محمد بن إدريس السنوسى[١] .

٣- الحركة المهدية والشيخ محمد أحمد المهدى (١٨٤٤ـ١٨٨٥م) :

ظهرت الحركة المهدية فى السودان فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر على يد محمد أحمد المهدى ، وهى حركة إسلامية امتدادا للحركات التى سبقتها

---

(١) دراسات فى المجتمع العربى ، مرجع سابق ، ص ١١٢، ١١٣ بتصرف.

درس المهدى القرآن الكريم والتوحيد فى مدارس الخرطوم الدينية ، ثم مال إلى التصوف واشتهر بالزهد والتقشف . رفع المهدى شعار الجهاد وخاض معارك كثيرة ضد القوات المصرية التركية ، ثم المصرية الإنجليزية وتوجها بانتصاره على القوات المصرية ـ الإنجليزية بزعامة الجنرال غوردون ، وفتح الخرطوم وتمكنت الحركة بعدها من إجلاء القوات المصرية التركية ـ الإنجليزية المشاركة جميعها فى حكم السودان . تقوم تعاليم الحركة على :

١- العمل بالكتاب والسنة والتوكل على الله وترك العمل بالمذاهب الأربعة.

٢- الإكثار من كلمة التوحيد وتلاوة القرآن الكريم ، وتلاوة « الراتب »[١].

٣- تحريم زيارة القبور والرقص والغناء وشرب الخمر والدخان ، كما دعا المهدى إلى البساطة فى الملبس والمأكل واحتفالات الزواج والجنازة . أما أهداف الحركة فهى :

١- إحياء التراث الدينى السلفى والعودة بالإسلام إلى سيرته الأولى .

٢- القضاء على الحكم المصرى التركى الإنجليزى الذى كان قائما فى السودان ، وعلى كل مظاهر الفساد الاجتماعى والسياسى التى كانت سائدة آنذاك .

٣- إقامة دولة إسلامية كبرى تشمل كافة العالم الإسلامى .

توفى المهدى عام ١٨٨٥م ، وخلفه من بعده عبدالله التعايشى الذى لقبه « بالصديق » ولكنه لم يكن بقوة المهدى ، فأخذت الدولة تتأخر وتنهزم أمام القوات المصرية - التركية - الإنجليزية ، وسقطت الدولة المهدية بعد الهزيمة فى موقعة « كررى » بالقرب من أم درمان ، وتحولت الحركة إلى طريقة صوفية نشأ عنها بعد ذلك حزب الأمة الذى تناوب على زعامته خلفاء وأبناء المهدى وكان

---

(١) مجموعة من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة جمعها المهدى فى كتيب صغير عرف بالراتب وفرض على أتباعه حفظها .

آخرهم الصادق المهدى ، الذى تولى رئاسة الوزارة السودانية أكثر من مرة آخرها كان فى بداية التسعينيات ، حيث قضت عليه ثورة عمر البشير ، وخرج منفيا بإرادته لينضم إلى المعارضة السودانية التى يرأسها جورج قرنق [١]. وعلى شاكلة هذه الحركات والتى كان هدفها الغير معلن إصلاح الخلافة الإسلامية أولا ، أو إقامة خلافة إسلامية بديلا عنها ، وعلى هذا المنوال كانت حركات أخرى فى الهند وإفريقيا وحركة الشيخ النورسى فى تركيا والذى سبقت الإشارة إليها.

لعبت هذه الحركات دورا مؤثرا فى تاريخ الأمة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، ومازالت بعضها باقية حتى الآن بشكل حكومى أو تجمع شعبى معين . وقد استنفدت هذه الحركات أغراضها بقيامها بحكم أجزاء من العالم الإسلامى المستعمر آنذاك والآيل إلى التجزئة التى لم يتمكن لا العرب والترك ولا الفرس والهنود ولا غيرهم تجاوز زمانها ومرحلتها ، ومازلنا نجتر بكل بلاهة هذا الواقع الذى يعتبر الداء الأكثر فتكا فى جسد الأمة الإسلامية خاصة بعد أن أصبح شرعية دولية يقوم العالم الآخر كله بالدفاع عن واقعها مهما كانت الأسباب والنتائج ، وحتى لا ينتقل التأثير من بلد إلى بلد ، وتركت القضية على أعنتها ، والتهت كل دولة بتحديات مختلفة الانتماءات لتبقى بعيدة عن الإسلام أو آثار الإسلام ، وجعلت تحديات الدول الحركات الإسلامية على اختلاف توجهاتها وزعاماتها.

رابعا : الحركات الإسلامية العالمية :

إذ شغلت عقول المفكرين المسلمين ـ على اختلاف توجهاتهم وأفكارهم ـ قضية الخلافة الإسلامية والجامعة الإسلامية ، ومع توحد الأصل فى هذا التفكير إلا أن التحديات التى قابلت كل واحد من المفكرين ، أو الذين أسسوا حركات وحكومات وأقاموا حكما معينا ، سنها ما عفى عليه الزمن ، أو ما زال البعض قائما يتبنى فكرا معينا محددا بقضايا شغلت أصحابها وتحديات أحاطت

---

(١) دراسات فى المجتمع العربى ، مرجع سابق ، ص ١١٣ - ١١٤ .

بها فلم يعد لها من هدف فى قضايا الدعوة أو نشر الإسلام أو السعى لإعادة حكم الإسلام ، وبذلك فإن قضية الجامعة الإسلامية أو الوحدة الإسلامية قد انتقلت إلى مسارات أخرى واتجاهات أخرى.

ولا يفوتنا القول: إن هذه القضايا التى صلحت لوقتها وتوقفت فى الوقت الحاضر ، حل محلها ما يمكن أن ينفع لهذا الوقت ومحاولة التخطيط للمستقبل . إن فكرة الجامعة الإسلامية[1] التى تبناها المفكرون المسلمون السياسيون قد مرت بمراحل :

المرحلة الأولى : توجهها لأن تكون شبه قومية عربية ردا على دعوة القومية الطورانية التى نادى بها الأتراك . فقد أدلى كل من عبد الحميد الزهراوى ورفيق العظم بآرائهما حول الجامعة الإسلامية قبل الانقلاب الدستورى العثمانى بعام واحد١٩٠٧م ، وفى فترة كانت النزعة الطورانية التركية تخطو فيها خطواتها الحثيثة . وكانت جمعية الاتحاد والترقى تهيئ نفسها لتسلم السلطة فى الإمبراطورية العثمانية .

أما الأقطار العربية الخاضعة لهذه الإمبراطورية فقد كانت تشهد بدورها حركة « قومية » تنشد بالدرجة الأولى تحقيق (مطالب) عربية على رأسها « اللامركزية الإدارية » جسدتها عدة جمعيات ونواد أهمها : « حزب اللامركزية العثمانى » الذى أسسه فى عام ١٩١٣م رفيق العظم ، ورشيد رضا ، والزهراوى ، وعدد آخر من السوريين المقيمين فى مصر ، فلم يكن غريبا إذاً أن نتبين لدى المفكرين المسلمين العرب توجها جديدا ونزوعا إلى ربط حركة الإصلاح السياسى بدائرة « الجنسية » العربية بالمعنى القومى الحديث ، لكن المعتدل لمصطلح « جنسية » وإلى ملاحظة الأساس اللاواقعى الحافل بالمخاطر لفكرة الجامعة بالمعنى السياسى للكلمة ، وقد كان هذا واضحا فى تحبيذ الزهراوى « للجامعة القومية » ، وفى تأكيد رفيق العظم أن الجامعة الدينية أندر

---

(١) راجع من أجل ذلك كتاب: حركة الجامعة الإسلامية: أحمد فهد بركات الشوابكة وكتاب أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث . د. فهمى جدعان.

من الجامعة القومية وأقل تحققا وثباتا .

ومع ذلك فإن الإنصاف تكرار لقول إن هذين المفكرين القوميين المسلمين لم يتنكرا للرابطة الدينية الإسلامية ، فهما قد ظلا مؤمنين بالدرو الجوهرى الذى ينبغى أن يلعبه « الدين » فى الحياة الاجتماعية والأخلاقية والسياسية للمجتمع كما بات بسبب سياسة الاتحاديين المماطلة فى تحقيق المطالب العربية أكثر ميلا إلى « دولة عربية » قد لا تكون مباينة لدولة الخلافة العربية التى دعا إليها مفكر سورى ثالث هو « عبد الرحمن الكواكبى » .

ولقد ساعد تطور الظروف السياسية ـ التى تمثلت فى إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد تسلم الاتحاديين للسلطة ، ودخول تركيا الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وخسارتها لهذه الحرب ، ثم ما تلا ذلك من احتلال قوات الحلفاء للأقطار العربية التى كانت خاضعة للدولة العثمانية . وتفتت الإمبراطورية العثمانية نفسها ـ ساعد هذا كله على انحسار الدعوة إلى « الجامعة الإسلامية » بعد أن لم يستجب أحد إلى النداءات التى أطلقت فى هذا الاتجاه وبعد أن انهار العالم الإسلامى بأسره تحت ضربات القوى الغربية الاستعمارية التجزيئية الهائلة .

وفتح التاريخ كتابا جديدا تدور صفحاته بشكل أخص حول « المسألة العربية» لا حول «المسألة الإسلامية » . ومما يجدر التنويه به فى هذه الفترة التى امتدت إلى ما بعد نهاية الحرب العالمية الثانية والتى شهدت انفصال تركيا عن ماضيها العثمانى الإسلامى ، وإلغاء الخلافة فى عام ١٩٢٤م . أن معظم المتحمسين القدامى لـ (الجامعة الإسلامية) قد راحوا يتجهون اتجاها قوميا عربيا صريحا دون أن يتخلوا مع ذلك عن الدور الجوهرى الذى ينبغى أن يحتله الإسلام فى أية « دولة عربية » يمكن أن تقام فى بلاد العرب .

من المؤكد أن سياسة الاتحاديين والفعلة الشنعاء التى أقدم عليها جمال باشا ، إذ أعدم فى عام ١٩١٦ م عددا من مفكرى العرب وسياسييهم - وعلى رأسهم عبد الحميد الزهراوى - قد قتلت أحد الدوافع الرئيسية لأنصار « الجامعة الإسلامية » إلى الأفق العربى ، وهجرهم شيئا فشيئا الدعوة إلى

« الوحدة الإسلامية » ، وكتب بعض دعاة الجامعة الإسلامية إلى الوحدة العربية أمثال : محمد رشيد رضا ، وشكيب أرسلان ، ومحمد كرد على .

أما الذى تقدم بمفهوم عربى للإسلام ، مفهوم وحدَّ فيه بين الإسلام والقومية العربية جاعلا من الإسلام دينا قوميا عربيا خالصا ، ومبتعدا بشكل ملموس فى البداية عن الكتاب الدينيين السياسيين ، فقد كان المفكر العراقى عبد الرحمن البزاز[١] .

إن وضع الاستعمار الغربى للعالم العربى والإسلامى ونشاط دعاة القومية العلمانية الملحدة فى الوطن العربى والإسلامى ، وإشغال عقول الناس بالوحدات المجزأة الوطنية ، والانتهاء من رسم الحدود بين مناطق النفوذ المتناحرة أو حتى الدولة الوحدانية [٢] كل هذا أدى بين الحربين (وهى فترة نضال الشعوب الإسلامية للتخلص من الاستعمار الغربى) أدى إلى تمكن دعاة القومية العربية وغير العربية إلى البروز والتعامل معها على أساس أنها هى البديل المقرر عن الاستعمار الغربى الذى ضعف وجوده مباشرة عقب الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م كما أن قيام الجامعة العربية على مبادئ قومية بحتة لا علاقة لها بالإسلام من قريب أو بعيد ، والتأكيد على أن الجامعة العربية هى البديل عن الجامعة الإسلامية ، وحتى الخلافة الإسلامية ، لكنها ولدت مريضة منذ توقيع ميثاقها عام ١٩٤٥م فى الإسكندرية.

ساعد الاستعمار دعاة القومية الإلحادية على حساب الحركات الإسلامية وبدأ يتآمر مع عملائه على الحركات الإسلامية والعمل الإسلامى مهما كان محدودا

---

(١) د . فهمى جدعان : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ط٢ ، ١٩٨١م ، ص٢٧٩ـ ٢٨١ بتصرف.

(٢) تجزئة المغرب العربى إلى عدة دول مع أنه تحت النفوذ الفرنسى ، وكذلك تجزئة سوريا ولبنان وتجزئة دول الخليج وجنوب الجزيرة العربية والعراق والأردن وفلسطين رغم أنها جميعا تحت النفوذ الإنجليزى ، وإيجاد كيانات صغيرة أو كبيرة والمساهمة فى دفع هذه الكيانات لتأسيس دول وقيادة حروب الاستقلال ، ومن ثم إقناع الشعوب بالتجزئة القائمة حتى الآن .

أو ضعيفا ، ولا يسمح إطلاقا بالتعامل مع هذا المنظور ، وشجع خلفاءه من الحكام العرب على الضرب القاسى ومن غير رحمة للحركات الإسلامية وتصنيفها مع أعداء الأمة وتقدمها وتطورها . وكان لدعاة القومية بعد المفاصلة الشنيعة بين القومية والإسلام وتمكن القومية من الحكم أثرا واضحا فى ضرب الفكرة الدينية الإسلامية والتى وصلت فى هذه الأيام - ذروتها تقريبا - وحتى دعاة القومية المعتدلة لاقوا جزاءهم بقساوة وحدة ، ولم يشفع لها فلسفاتهم التى شجعوا بها التمازج بين القومية العربية والإسلام .

وبدا واضحا منذ أيام الاستقلال الأولى هذا التوجه الذى اشتد أواره . ولم تجد كل محاولات الوفاق - الفكرية على الأقل - بين الفكر القومى والفكر الدينى أية نتائج بعد أن ازدادت ممارسات القوميين أو أدعياء القومية ضد الحركات الإسلامية وقد اقتلعتها من جذورها تماما فى بعض البلدان [١] ، وحتى دعاة القومية أرادوا أن يخففوا من غلواء ممارسات الحكام فأصابهم ما أصاب الإسلاميين من تشتت وتشريد وقمع [٢] .

إن العالم العربى والإسلامى فى حالة انفصال كامل بين الإسلام - بعد استمرارية الفكرة الإسلامية والتى قويت ـ رغم كل الممارسات والقمع بالصحوة الإسلامية - وبين الفكر القومى والعلمانى الذى حكم وبدأ ينهار

---

(١) لقد قام القوميون بممارسات اجتثاث الإسلام نهائيا من المناطق التى حكموا فيها وتشريد دعاة الإسلام وقتلهم وملاحقتهم فى جميع أنحاء العالم كما فى (العراق ، سوريا) حكم حزب البعث العربى الاشتراكى (مصر ، ليبيا ، تونس) لعب الفكر القومى وما زال فيها دورا قويا ... « المغرب ودول الخليج » تحت مظلة الإسلام . تركيا علنا وحرب مكشوفة بين العلمانية القومية والإسلام .

(٢) انظر كتاب : « الحوار القومى ـ الدينى » أوراق عمل ومناقشات الندوة الفكرية التى نظمها مركز دراسات الوحدة العربية وشارك فيها كل من : « طارق البشرى ، محمد عابد الجابرى ، عبد العزيز الدورى ، رضوان السيد ، أحمد كمال أبو المجد ، جوزف مغيزل ، أحمد صدقى الدجانى . محمود محمد الناكوع . مركز دراسات الوحدة العربية ط١ ، ١٩٨٩ .

فكريا من خلال ممارسات الحكام وتحول إلى ديكتاتوريات شخصية أوعائلية أو طائفية تحاول إعادة الأحكام الملكية الوراثية فى البلدان التقدمية الجمهورية الاشتراكية الوطنية . وبذلك فقد بدأ القوميون الذين ورثوا أفكار من سبقهم ولم يتمكنوا أن يطوروها أو يعدلوا بها أو يقوموها ـ نتيجة ممارساتهم أثناء حكمهم ـ بدؤوا يفكرون بأيديولوجيات أخرى تحمى فكرهم الإلحادى ، أو تجد بعض القبول لدى الجماهير ، ولكنهم لم يجدوا إلا الفكرة العلمانية يستظلون بها فى محاولات يائسة لاستمرار بعدهم عن الإسلام أو إيجاد مبرر لحربة .

ولا ننكر أن الكثيرين من دعاة القومية قد آبوا إلى ما يجب أن يستظلوا به وهو الإسلام ، وأخذوا يتلمسون الخطى هنيهة أو يقتحمون الميدان مرة واحدة . وبذلك فقد أخلى الساحة للإسلاميين أن يحسنوا خطابهم مع الناس على اختلاف مشاربهم ومنابتهم ، حتى يتمكنوا أن يحققوا أهدافهم أو بعضا منها ، ولو بعيدا عن ساحات الحكم والصراع فى فترة ثبت بها أن الصراع لم يكن فى أى مكان لصالحهم ولأسباب كثيرة .

وهكذا آلت دعوة « الجامعة لإسلامية » فى فترة ما بين الحربين إلى التقلص والانحسار ، لكنها ما لبثت أن نشطت بعد الحرب العالمية الثانية فى أوساط « جماعة الإخوان المسلمين » فى عدد من الأقطار العربية ، ولدى بعض الحركات الدينية الإسلامية فى الهند ، وخاصة تلك التى تزعمتها شخصيات من أمثال أبى الأعلى المودودى ، وأبى الحسن الندوى ، كما ترددت على ألسنة بعض الكتاب الدينيين من عرب وغير عرب . وقد بدت فى هذه المرة ذات طبيعة جادة تماما ، ولعل ذلك راجع إلى خروج البلاد العربية من القبضة الاستعمارية ، وغزوها لاستقلالها الذاتى من ناحية ، ولظهور دول جديدة إلى الوجود ذات طابع دينى إسلامى خالص كدولة باكستان مثلا .

وهكذا نجد مثلا الكاتب الهندى أبا الحسن الندوى الذى ألف بالعربية كتابا كان له رواج واسع فى أوساط المتدينين العرب فى أوائل الخمسينيات ، وقدمه إلى قراء العربية سيد قطب : (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) يتكلم عن

العالم الإسلامى كما لو كان متحدا ومتجانسا فعلا ، وكما لو كان يكون قوة حقيقية تقابل بقية الإنسانية ، فلا يتردد فى التصريح فى كتابه بأن المسلمين (على علاتهم) مدعوون لأن يكونوا أوصياء على الإنسانية ، وقادة العالم ، والبديل الحقيقى لجاهلية الغرب .

وفى العام نفسه الذى ظهر فيه كتاب الندوى دعا ـ عبد القادر عودة ـ وقد وضع آماله الكبيرة فى حركة « الإخوان المسلمين » ورأى بأم عينه صعود هذه الحركة وامتدادها الواسع ـ دعا إلى وحدة الأمة الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها على أساس رابطة ـ الأخوة الإسلامية ـ ومع أن مبدأ هذه الوحدة كلمة التقوى ودعائم ثابتة من الأخوة والتعاون والتضامن والتراحم والتعلق بالأخلاق الكريمة . إلا أن هذا يلزم - فى رأى عبد القادرعودة - بالقضاء على الحواجز الجغرافية والعصبيات الإقليمية والقبلية ـ فضلا عن إلغائه لفوارق اللغة والجنس واللون .

ومعنى هذا أن مفهوم « الدولة الواحدة » و « الإمام الواحد » و « الحدود الإقليمية الواحدة » ، و « الجنسية الواحدة » وفى رأى عبد القادر عودة أن هذا لا يتعارض مع أصل « عالمية الشريعة » و « لا مكانتها» ـ فالإسلام هو حقا شريعة لكافة الأقوام والأجناس والقارات ـ لكن الواقع هو أن الناس ليسوا جميعا مؤمنين به ، كما أنه لا يمكن أن يفرض عليهم فرضا ؛ لذا كان من الطبيعى أن يكون الإسلام أقاليمه وعالمه الذى تطبق به شريعته وسلطانه ، ويكون للمسلم دار أمن ـ وتلك هى دار « أمة الإسلام » ـ وأن يكون ثمة قسم آخر من العالم الإسلامى لا تطبق فيها أحكام الإسلام وشرعته ويكون بالنسبة للمسلمين دار خوف وعداء تعددت حكوماتها ودولها ـ وتلك هى « دار الحرب» .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن تكون « الدولة الإسلامية » أو دار الإسلام وحدة سياسية وقانونية لا تتعدد فيها الحكومات ولا تختلف فيها الأحكام باختلاف

الجهات[١] ، مما يعد استئنافا صريحا لنظرة الفقهاء القديمة التى تقسم العالم قسمين : « دار إسلام » و « دار حرب » لا ثالث لهما ، وليس ثمة شك فى أن قسمة كهذه صريحة فى جرأتها من شأنها ـ لو كان للدولة الإسلامية وجود ـ أن تثير لغطا وإحراجا لقوة الدولة فى علاقاتها مع الدول الحديثة غير الإسلامية . ومع ذلك فإن الطابع « النظرى » الخالص لهذه الفكرة يشفع لها ويجردها من خطورتها .

أما الفكرة التى لم تكن آثارها حسنة تماما فى المجال العربى فهى إعطاء « الوحدة الإسلامية » الحق الأول والأفضلية على (الوحدة العربية) ففى فترة كانت جماهير العالم العربى فيها تتطلع إلى بناء عالم عربى موحد أثار « الإخوان المسلمون » فى الخمسينيات جدلا حادا حول مسألة(الوحدة العربية) و(الوحدة الإسلامية) وذهبوا إلى شجب موقف الذين يعطون الأولوية للوحدة العربية ، بينما وافقوا على هذه الوحدة شريطة أن تليها « الوحدة الإسلامية »[٢] .

---

(١) عبد القادر عودة : الإسلام وأوضاعنا السياسية ، ط١ ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م ، ط٢، ١٩٧٦م ، ص٢١٧ ـ ٢٢٣ . فهمى جدعان : أسس التقدم عن مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث .

(٢) تبنى العلمانيون والقوميون فكرة القومية العربية والوحدة العربية فى هذا القرن بشدة ومنهم بعض الإسلاميين أيضا ، وخاصة بعد الضربة المؤلمة للأمة العربية وللمسلمين فى العالم بالتجزئة التى أصبحت « شريعة » وقد وصل الكثير من هؤلاء الدعاة إلى الحكم وما زالوا فيه ، ومع هذا فلم يحققوا هذا الشعار الذى قتلوا الناس من أجله والذى أصبح عندهم قضية « ولاء وبراء » و « إيمان وكفر » وقد حصلت تجارب كثيرة كان نصيبها جميعا الفشل عدا « دولة الإمارات العربية المتحدة » و « اليمن » وقد عمقت الجراح فى نفوس الجماهير وجعلت بعض الحكام أمناء الوحدة العربية والأوصياء عليها يكفرون بها وبدعاتها وحتى بالحديث عنها .

وقد مضى أكثر من قرن على الفكرة ومحدثاتها وأحداثها وما زالت الآن فى خط منحدر وبشكل واسع . واكتفى دعاة الوحدة والقومية بقتل معارضيهم وخصومهم السياسيين حتى بين بعضهم البعض لم يسلموا من القتل والقطيعة والتناحر والتباغض (تجربة حزب البعث العربى الاشتراكى الحاكم فى كل من العراق وسوريا) والقطيعة المرة والحرب المقفلة بينهما منذ عام ١٩٧٥ م وحتى الآن .

ومع ذلك فإن تطور الأحداث فى (العالم العربى) وفى (العالم الإسلامي) وبصورة خاصة ما نجم من ارتباط عدد من « الدول الإسلامية » بأحلاف عسكرية لصالح الاستعمار الغربى والأمريكى . قد جرد أتباع (الوحدة الإسلامية) من قدرتهم على استخدام هذا الشعار . ولم يكن ينفعهم كثير من هذه الناحية ترديد القول: إن هذه الدولة ليست (إسلامية) بحال من الأحوال، فإن قوة الواقع تتغلب فى كثير من الأحيان على قوة المبادئ النظرية ؛ لذا لم يكن أمام المصلحين الدينيين « الواقعيين » إلا أن يعودوا من جديد إلى مفهوم « الجامعة الإسلامية » داخل النظام الاجتماعى الواحد ــ بمعنى بناء « جماعة المسلمين » على مبادئ الاعتقاد والأخلاق والاجتماع الإسلامية ، وفى وطن متميز هو هيكل هذا المجتمع تحميه سلطة محسوسة هى الدولة ، وعلى مفهوم « الأخوة الإسلامية » باعتبارها « جماعة دينية عقلية » أو نفسية توثق الروابط بين المسلمين أينما كانوا فى الأقطار ، وثبت فيهم من خلال الاتحاد الروحى والمواساة والمحبة والنصح وحسن المعاملة ومد يد المعاونة وسائر الروابط الروحية المعنوية التى « ليس للمادة حظ فيها »أى : التى لا يناط تحقيقها بوحدة سياسية وقانونية للأقطار التى ينتمى إليها هؤلاء المسلمون الذين يشتركون فى هذه الأخوة ، وقد كانت هذه نظرة العالم التونسى « الطاهر بن عاشور »[١].

أما المفكر الجزائرى مالك بن نبى فقد قدم صيغة معتدلة للجامعة الإسلامية أطلق عليها اسم « كومنولث إسلامى » صيغة لم تقع فى تشدد « الوحدة من الشمولية الكاملة » . ولا فى تراخى مفهوم « الأخوة » المعنوية التى تظل قاصرة عن ولوج الواقع الشخصى[٢].

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعى فى الإسلام ، تونس ١٩٦٤م ، ص١٠٤ ـ ١٢٢ .

(٢) مالك بن نبى : نحو كومنولث إسلامى ـ ترجمة عبد الصبور شاهين ، القاهرة ، وأسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ٢٨ ـ ٢٨٦ .

لقد كان عبد الحميد بن باديس ١٣٠٨- ١٣٩٩ هـ - ١٨٨٩ـ ١٩٤٠م مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فى عام ١٩٣١م [١] من أوائل الذين عبروا من وجهة جديدة فى فهمهم لمنصب « الخلافة » الإسلامى ، فهو قد استنكر صراحة الصورة التى انتهت إليها الخلافة مع الأتراك العثمانيين ، بل استنكر بلا مواربة هتاف بعض الأزهريين بالخلافة لملك مصر . متفقا فى هذه النقطة بالذات مع ما ذهب إليه على عبد الرازق .

يقول ابن باديس : إن الخلافة هى المنصب الإسلامى الأعلى الذى يقوم على تنفيذ الشرع وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوى العلم والخبرة والنظر ، وبالقوة من الجنود والقواد وسائر وسائل الدفاع.

فيوم ألغى الأتراك ـ ولسنا نبرر كل أعمالهم ـ لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامى ، وإنما ألغوا نظاما حكوميا خاصا بهم ، وأزالوا رمزا خياليا فتن به المسلمون لغير جدوى ، وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة والمتخوفة من شبح الإسلام ، ومع ذلك فإن ابن باديس لم يتردد فى إحدى المقالات التى نشرتها الشهاب عام ١٩٣٨م فى رسم صورة للنظام السياسى فى الإسلام ، رد فيها أصول الولاية فى هذا النظام إلى ثلاثة عشر أصلا اشتقها من خطبة أبى بكر الصديق ﷺ المشهورة لما بويع بالخلافة ، وضمنها أفكارا سياسية صارخة فى الدعوة إلى استقلال الأمة الجزائرية وحريتها وسيادتها ، كما اعتبرها خير أصول يمكن بها « تدارك البشرية » والـ « نجاة من تعاسة العالم اليوم » [٢].

وعلى الرغم من نظرة ابن باديس النقدية لمفهوم الخلافة ، فإنه لم يعتقد أبدا بأن الانحطاط الذى أصاب المسلمين يرجع إلى هذا النظام نفسه ، كما يفهم مما ذهب إليه على عبد الرازق فهو صريح القول : « إن أسباب الحياة والعمران

---

(١) انظر : (ابن باديس : حياته وآثاره) إعداد وتصنيف عمار الطالبى ـ دار ومكتبة الشركة الجزائرية ، ط١ ١٣٨٨ / ١٩٦٨ فى أربعة أجزاء ، المدخل مجلد ١، ص ١٥ ـ ١٢١ بقلم عمار الطالبى .

(٢) راجع: د . فهمى جدعان : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ص٣٤٤ ـ ٣٤٨ بتصرف .

والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وإن من تمسك بسبب بلغ ـ بإذن الله ـ إلى مسببه ، سواء أكان برا أم فاجرا ، مؤمنا أم كافرا.

والمسلمون لما أخذوا بأسباب العمران كما يأمرهم دينهم سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع ، وحين أهملوا تلك الأسباب تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم ، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط » فأنجع « دواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره المتقدم» هى أن يعلم ذلك المسلم أنه ما تأخر بسبب إسلامه ، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه ، وأن السبب فى التقدم والتأخر هو التمسك والترك بالأسباب[١].

أما « جماعة الإخوان المسلمون » التى ظهرت فى الثلاثينيات فى جو مصر المشحون بالخصومات السياسية الصريحة ، وبتناحر الأحزاب الطليق تحت خيمة الاحتلال البريطانى ، فقد دعت على لسان مؤسسها حسن البنا إلى تصور تكاملى شامل يضم تحت جناحيه كل التجليات النظرية والعلمية للإسلام[٢].

وفى الخطاب الذى وجهه « المرشد العام للإخوان المسلمين » فى رجب عام ١٣٦٦ هـ إلى ملك مصر وملوك بلدان العالم الإسلامى ورؤسائها ، حدد « المهمة » فى شرطين :

أولهما: تخليص الأمة من قيودها السياسية حتى تنال حريتها ويرجع إليها ما فقدت من استقلالها وسيادتها .

وثانيهما: بناؤها من جديد لتسلك طريقها بين الأمم وتنافس غيرها فى درجات الكمال الاجتماعى ، وحين دعاهم إلى تحديد الطريق الذى ينبغى

---

(١) عبد الحميد بن باديس : تفسير ابن باديس ، دار الكتاب الجزائرى ، ١٩٦٤ ، ص٧٨ . انظر: أسس التقدم عند مفكرى الإسلام ـ مرجع سابق ص٣٤٨ .

(٢) حول نشأة هذه « الجماعة » وتطورها وأفكارها ، ينظر نظرا نقديا إسحاق موسى الحسنى « الإخوان المسلمون » بيروت ، ١٩٥٠م ، ومجيد خدورى : الاتجاهات السياسية فى العالم العربى ، بيروت ، ص٨٥ ـ ١٠٠ ، والإخوان المسلمون لريتشارد ب ميتشل (ترجمة عبد السلام رضوان ، بيروت ١٩٧٨) ، وكذلك واقعنا المعاصر : محمد قطب وكتابنا : « حاضر العالم الإسلامى » ط١ ، ص٦٩ ـ ٨٧ .

عليهم سلوكه لم يجد سوى أحد سبيلين :

١- فأما الأول : فطريق الإسلام وأصوله وقواعده وحضارته ومدنيته .

٢- وأما الثانى : فطريق الغرب ومظاهر حياته ونظمها ومناهجها .

ولكنه أكد بوضوح تام أن العقيدة التى يأخذ بها هى « أن الطريق الأول : طريق الإسلام وقواعده وأصوله ؛ هو الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلك ، وأن توجه إليه الأمة الحاضرة والمستقبلة[١] ، وقد كان التوجه الإسلامى » و« الطابع الإسلامى التصحيحى » لفكرته يبينان أن ألإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة . كما هو عقيدة صادقة وعبادة[٢] وتحقيق ذلك كله أمر ممكن ، ونهضة الأمة على أساسه ليس مما يستعصى على المؤمنين على الرغم من أن التيارات الجارفة الهدامة هى « مما يجعل اليأس يدب فى القلوب والقنوط يستولى على النفوس » لكن « نظرة فلسفية اجتماعية » إلى واقع الحال تبدد هذا اليأس وتفعم النفس بالأمل واليقين ذلك « أن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هى حقائق الغد » كما يقول علماء الاجتماع . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها مدارج الكمال[٣] .

ولقد كان حسن البنا حساساً جدا لأمر « وحدة الأمة » أو « الجماعة » وكان يرى أن العداء بين الأحزاب السياسية وتناحرها هو هدم لهذه الوحدة ، ولم يكن البديل يقوم عنده إلا فى نظام يتسم بالوحدة المتجانسة هو النظام الإسلامى . وأن الأمر الجوهرى فى الإسلام أنه دين ينشد إقامة « حكومة إسلامية » حقيقية لا اسما .

---

(١) حسن البنا: الرسائل الثلاث ، نحو النور (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) ص ١٦٦ .

(٢) حسن البنا : رسالة التعاليم (مجموعة الرسائل) ص٧ .

(٣) المصدر السابق ص١٥٧ (إلى أى شىء ندعو الناس) .

١٣٦٦ هـ إلى ملك مصر وملوك بلدان العالم الإسلامى ورؤسائها ، حدد « المهمة » فى شرطين :

أولهما: تخليص الأمة من قيودها السياسية حتى تنال حريتها ويرجع إليها ما فقدت من استقلالها وسيادتها .

وثانيهما: بناؤها من جديد لتسلك طريقها بين الأمم وتنافس غيرها فى درجات الكمال الاجتماعى ، وحين دعاهم إلى تحديد الطريق الذى ينبغى عليهم سلوكه لم يجد سوى أحد سبيلين :

١- فأما الأول : فطريق الإسلام وأصوله وقواعده وحضارته ومدنيته .

٢- وأما الثانى : فطريق الغرب ومظاهر حياته ونظمها ومناهجها .

ولكنه أكد بوضوح تام أن العقيدة التى يأخذ بها هى « أن الطريق الأول : طريق الإسلام وقواعده وأصوله ؛ هو الطريق الوحيد الذى يجب أن يسلك ، وأن توجه إليه الأمة الحاضرة والمستقبلة[١] ، وقد كان التوجه الإسلامى » و« الطابع الإسلامى التصحيحى » لفكرته يبينان أن الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا ، فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة ، وهو خلق وقوة ، أو رحمة وعدالة ، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء ، وهو مادة وثروة ، أو كسب وغنى ، وهو جهاد ودعوة ، أو جيش وفكرة . كما هو عقيدة صادقة وعبادة[٢] وتحقيق ذلك كله أمر ممكن ، ونهضة الأمة على أساسه ليس مما يستعصى على المؤمنين على الرغم من أن التيارات الجارفة الهدامة هى « مما يجعل اليأس يدب فى القلوب والقنوط يستولى على النفوس » لكن « نظرة فلسفية اجتماعية » إلى واقع الحال تبدد هذا اليأس وتفعم النفس بالأمل واليقين ذلك « أن حقائق اليوم هى أحلام الأمس ، وأحلام اليوم هى حقائق الغد » كما يقول علماء الاجتماع . وتلك نظرة يؤيدها الواقع ويعززها الدليل والبرهان ، بل هى محور تقدم الإنسانية وتدرجها مدارج

---

(١) حسن البنا: الرسائل الثلاث ، نحو النور (مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا) ص ١٦٦ .

(٢) حسن البنا : رسالة التعاليم (مجموعة الرسائل) ص٧ .

وبتعبير آخر لابد فى رأى حسن البنا للخروج من حالة الانحطاط ، من الربط العملى بين أحكام الدين ومؤسسات الدولة ، وهذا يقتضى بالضرورة سلطة أو حكومة إسلامية ، لكن ما هى (القواعد الأساسية) التى ينبغى أن تقوم عليها الحكومة الإسلامية هذه؟

ترجع هذه القواعد فى تصوره إلى ثلاث :

الأولى: مسؤولية الحاكم ، بحيث تكون الحكومة مسؤولة أمام الله من ناحية ، وأمام البشر من ناحية أخرى أو الرعية ؛ إذ ليس الحاكم إلا عاملا مأجورا للأمة بناء على أفضل وأعدل « عقد اجتماعى » تلتزم الحكومة فيه بالسهر على المصالح العامة للأمة فى مقابل أجر تتقاضاه لقاء خدماتها .

الثانية : وحدة الأمة فى إطار من الأخوة بين أفرادها لا يتحقق المعنى الكامل للإسلام إلا بها ، وحدة روحية ووحدة اجتماعية .

الثالثة : احترام إرادة الأمة ؛ إذ من حق الأمة أن تراقب عن كثب حاكمها ، فتشير عليه بالطريق الذى ينبغى أن يسير فيه وبالحيز العام الذى تنشده من فعلها والحاكم من جانبه ملزم باحترام إرادتها وباتباع رأيها .

وفى رأى حسن البنا أن تطبيق هذه القواعد تطبيقا سليما يخلق التوازن فى المجتمع ، لكن هذا التوازن لا يمكن أن يستمر إلا بالوعى الحى ، وبالإحساس بقداسة هذه المبادئ إحساسا يراقب معه عن كثب حسن سير النظم وفلاحها . وهذه هى وظيفة الهيئة التمثيلية للأمة . صحيح أن « النظام التمثيلى » قد ورد إلينا من الغرب لكن هذا النظام يقرر ـ كما بين ذلك فقهاؤنا ـ مسؤولية الحاكم وسلطة الأمة ووحدتها الروحية[1] .

---

(١) يجب توضيح فكرة التمثيل والاختيار ، هل هى من الغرب فعلا أم أن النظام الإسلامى عمليا قد أعطاها ومارسها الكثير من عامة الشعب أو من ممثليهم من وجه الحاكم « قصة الأراضى المفتوحة » وموقف بلال ﷺ وصحابته باتجاه رأى تقسيم الأراضى=

إن التصور الديمقراطى المعمول به فى الغرب (قبول النظام التمثيلى) لا يختلف عما تدعو إليه الشريعة الإسلامية شريطة أن يكون المنتخبون الذين سيناط بهم « الحل » و « العقد » أكفاء أحرارا من كل ضغط أو سيطرة تمليها عليهم قوة خارجية ، ولا ينبثق انتخابهم عن الدعاوى الانتخابية الخادعة ، إذ ينبغى أن يكون لهذه الدعاوى معايير وضوابط شريفة نزيهة يعاقب المخل بها .

أما رئيس الدولة عنده ، فلا يشبه قطعا « الخليفة » الذى يتصوره البيروقراطيون ، إذ هو مسؤول أمام الأمة وتمثيلها ، وسلطاته يمكن أن توكل إلى وزراء تفويض أو تنفيذ سبق أن تكلم عنهم الماوردى ، ونجد لهم نظراء فى الأنظمة الحديثة البرلمانية يكونون مسؤولين أمامه أو أمام ممثلى الأمة ، فهو إذن أبعد ما يكون عن الحاكم المطلق المقدس ، والدولة التى يقف على رأسها ويوجه دفتها ليست فى حال من الأحوال دولة بيوقراطية « كما يمكن أن يتبادر إلى الأذهان » .

الدولة إذن هى قاعدة للنظام الاجتماعى تشد من أزره وتحمى قيمه وتنشرها فى الآفاق ، أما الشريعة فهى وعاء هذه القيم ، فالدولة إذن هى حامية الشريعة والساهر على تنفيذها ونشرها . من أجل هذا كانت العلاقات بين الشريعة

= على المحاربين وموقف عمر وصحابة آخرين ضد الفكرة ، حتى إن عمر كان دوما يردد: اللهم اكفنى بلالا وأصحابه . ومواقف أخرى كثيرة يحسن أن تصاغ فى قالب مقبول شرعى ، لحسم قضية خلافية كبيرة فى موضوع الانتخابات . فالانتخاب نظام إسلامى أصيل غير مأخوذ من غيره .

يلاحظ ما يأتى :

أ- إن الرجوع إلى الأمة لانتخاب رئيسها ـ الخليفة ـ أمر صرح به الفقهاء فمن أقوالهم : من رضيه المسلمون إماما لهم فهو الإمام. (انظر: الأحكام السلطانية لأبى يعلى الفراء)

ب- ويتحقق الانتخاب الأمة للخليفة ، إما بالانتخاب المباشر ـ أو عن طريق أهل الحل والعقد ـ وهؤلاء كانوا معروفين فى زمن الخلفاء الراشدين ، أما الآن فلا سبيل إلى معرفتهم إلا عن طريق انتخابهم من قبل الأمة (من كتابنا أصول الدعوة) تعليق : الدكتور عبد الكريم زيدان أثناء مراجعته للكتاب .

والقانون الوضعى موازية للعلاقة بين الدين والدولة . ومن أجل هذا حرص المفكرون المسلمون المحدثون دوما على أن يفهم من مادة « دين الدولة الإسلام» أن تكون قوانين الدولة مستندة إلى أحكام الشريعة الإسلامية لا إلى أحكام القانون الوضعى الغربى ، أو على الأقل أن يتم التركيب بين أحكام الشريعة الإسلامية وأحكام القانون الوضعى التى لا تتعارض مع مبادئ هذه الشريعة أو مع فروعها ، بحيث يقوم بينهما « تكامل » و « انسجام » يغطى حاجات كل مجتمع .

وهذا ما حرص على التأكيد عليه عدد من القانونيين المسلمين من أمثال : على أبو الفتوح ، وعبد القادر عودة ، وعبد الرحمن البزاز وعلال الفاسى . والحقيقة أن هؤلاء لم يقتصروا على الانطلاق من الشريعة واستلهام القانون الوضعى وإنما حرصوا أيضا فى بعض الأحيان على بيان «مميزات » خاصة للشريعة الإسلامية تتفوق فيها على القانون الوضعى نفسه .

فهذا على أبو الفتوح يكتب فى عام ١٩٠٥م فى « الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية » ما نصه : ويظن كثير من الناس ، حتى من المسلمين أنفسهم ، أن المبادئ المقررة فى الشريعة الغراء لا توافق هذا الزمان الذى بلغ فيه الإنسان من التمدن والترقى درجة رفيعة ، ويتوهمون أن الأحكام والروابط التى فى القوانين الوضعية لا مقابل لها فى الأصول الإسلامية . وأنها بمثابة الاختراعات المادية الجديدة التى أنتجها فكر علماء الغرب لم يسبقهم إليها أحد! ولكن الباحث فى الفقه الإسلامى - ولو قليلا- لا يلبث أن يغير هذا الظن ، ويتحقق من أن أسلافنا بلغوا فى الرفاهية وتقرير المبادئ العمرانية والاجتماعية والقضائية شأوا قلما يجاريهم فيه أحد إلا أن صعوبة كتب المتأخرين وكيفية تأليفها ، والتواء أساليبها ، وتعقيد عبارتها قد أوصد الباب فى وجه من يريد الوقوف على حقيقة الشريعة الغراء من غير المنقطعين لدراستها ، ولذلك فإنى أشير على من يسلك هذا الطريق أن يقصد المؤلفات القديمة ؛ لأنها أسهل موردا وأغزر مادة . مع خلوها من التعقيد وتنزيهها عن المشاغبات اللفظية . وليترك

هذه الكتب الحديثة للمنقطعين لفهمها بدون ملل ولا حساب للوقت [١] .

ونستطيع أن نقف على بعض مفكرى الإسلام فى العصر الحاضر الذين صاغوا نظرية الحكم الإسلامى الحديث ، لنرى أن مفكرى الإخوان المسلمين (حسن البنا ـ عبد القادر عودة ـ سيد قطب ـ محمد قطب ـ محمد الغزالى : وغيرهم سواء فى مصر ـ يوسف القرضاوى ، أو من بلاد الشام .. الشيخ الدكتور مصطفى السباعى ، عصام العطار ، محمد المبارك ، منير الغضبان ، سعيد حوى ، أحمد أبو فارس ، ومن العراق : محمد محمود الصوان ، عبد الكريم زيدان ، ولم يبتعد كثيرا عنهم محمود شيت خطاب ومنهم محمد الأحمد الراشد ، ومن شمال إفريقيا ـ تونس والجزائر والمغرب والسودان ، فى الغرب وفى الأمريكتين ؛ وغيرهم من بقاع العالم . وفى اليمن الكثيرون أيضا) كان لهم السبق فى صياغة هذه النظرية من جهة ، وتربية أبناء الحركة عليها .

وفى هذا الاتجاه من تجاوز أفكار بعض أعضاء ومؤسسى حزب التحرير الشيخ تقى الدين النبهانى ١٩٠٩ ـ ١٩٧٩م ، والآخرون من صاغوا فكرة الحكم والدولة فى أدبيات الحزب ، حيث إن تركيزهم قد انصب على إقامة الدولة الإسلامية من جهة والتوسع من مضمار بحث الخلافة الإسلامية وضرورة عودتها ولو بالأسلوب الذى انتهت به[٢] ، واعتبار أن الخلافة نظام الإسلام الأوحد الذى يجب أن يعود وبأسرع وقت . فقد حدد الحزب أولا مدة ثلاثة عشر عاما من تاريخ تأسيسه[٣] للوصول إلى الحكم ، ثم مدها ثانية إلى ثلاثة عقود من الزمان « ٣٠ سنة » مراعاة للضغوط والظروف المختلفة ولكن

---

(١) على أبو الفتوح : الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية (ظواهر فى القضاء والاقتصاد والإجماع) : مطبعة المعارف ١٣٣١هـ ، ١٩١٣ ، ص٥ ـ ٦ ، أسس التقدم عن مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ص٣٥٠ ـ ٣٥٤ بتصرف ، ويحسن الرجوع إلى الكتاب المذكور لاستكمال بعض الأفكار الواردة فيه .

(٢) انظر : عبد القديم زلوم : كيف هدمت الخلافة .

(٣) أسس الحزب عام ١٩٥٢ م .

شيئا من ذلك لم يحدث على الرغم من مضى المدتين .

ولقد تطورت أفكار الحزب وعقائده ، فكانت للمؤسس الشيخ تقى الدين النبهانى أفكار قومية إذ أصدرت سنة ١٩٥٠ كتابا بعنوان « رسالة العرب » وانعكس هذا الترتيب على ترتيب أولويات إقامة الدولة الإسلامية فى البلدان العربية أولا ثم الإسلامية . وكان النبهانى فى بداية أمره على صلة بالإخوان المسلمين فى الأردن يلقى محاضراته فى لقاءاتهم ، ويثنى على دعوتهم ، وعلى مؤسسها الشيخ حسن البنا[١] .

وأصدر الحزب أيضا دستورا للدولة الإسلامية يتألف من ١٨٧ مادة ، صاغها على شكل الدساتير الحديثة ، مقننا على أشكال الحقوق الدستورية الحديثة ، تحسبا لقيام دولة الإسلام والخلافة تحديدا ، حتى لا يضيع رجال الدولة وقتهم بصياغة الدساتير . فالمادة الأولى من الأحكام العامة تنص على أن: العقيدة الإسلامية هى أساس الدولة بحيث لا يتأتى وجود شىء فى كيانها ، أو جهازها ، أو محاسبتها ، أو كل ما يتعلق بها إلا بجعل العقيدة الإسلامية له ، وهو من نفس أساس الدستور والقوانين الشرعية ، بحيث لا يسمح بوجود شىء مما له علاقة بأى منهما ، إلا إذا كان منبعثا عن العقيدة الإسلامية .

والمادة السابعة تقول : تنفذ الدولة الشرع الإسلامى على جميع الذين يحملون التابعية الإسلامية سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين على الوجه التالى:

أ- تنفذ على المسلمين جميع أحكام الإسلام دون استثناء .

ب- يترك غير المسلمين وما يعتقدون وما يعبدون .

جـ - المرتدون عن الإسلام يطبق عليهم حكم المرتد إن كانوا هم المرتدين ، أما إذا كانوا أولاد مرتدين وولدوا غير مسلمين فيعاملوا معاملة غير المسلمين حسب وضعهم الذى هم عليه من كونهم مشركين أو أهل كتاب .

---

(١) حاضر العالم الإسلامى ، ط١ ، ١٩٩٧ ، ص٨٩ فما بعد ، انظر أيضا : أسس التقدم عند مفكرى الإسلام : فهمى جدعان ، ص٣٨١ فما بعد .

د- يعامل غير المسلمين فى أمور المطعمات والملبوسات حسب أديانهم ضمن ما تجيزه الأحكام الشرعية ، وسائر أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات وبينات ونظم وحكم واقتصاد وغير ذلك على الجميع ، ويكون تنفيذها على المسلمين وعلى غير المسلمين على السواء ، وتنفذ كذلك على المعاهدين والمستأمنين وكل من هو تحت سلطان الإسلام ، كما تنفذ على أفراد الرعية إلا السفراء والقناصل والرسل ومن شاكلهم فإن لهم الحصانة الدبلوماسية .

وحول لغة الدولة تنص المادة الثامنة : اللغة العربية هى وحدها لغة الإسلام وهى وحدها اللغة التى تستعملها الدولة [١].

وفى الوقت الذى يرسم به الخطى للوصول على الحكم لم يتقن عمليات الانقلاب التى أتقنها الآخرون ، فكانت نهج جميع العسكريين الذين اغتصبوا الحكم فى العالم العربى منهم من مضى ومنهم ما زال يجثم على رقاب الأمة فى أكثر من موقع.

ادعاء الخلافة :

١- فى هذا الوقت قفز عدد من المسلمين إلى سدة الخلافة . فقد قام كثيرون بادعاء الخلافة وإعلانها ، فقد أعلنت فى بداية التسعينيات من هذا القرن فى قبائل مدينة بشاور فى باكستان ، ثم انقض عليها أتباعها ولاحقوا الخليفة الذى فر إلى مكان مجهول . وكانت كل تحركاتهم شبه مجهولة وكذلك صلاتهم .

٢- أعلن الخلافة رجل تركى من الجالية التركية فى ألمانيا ، وأسمى نفسه بأمير المؤمنين وخليفة المسلمين وهو الأستاذ الشيخ المرحوم جمال الدين بن رشيد خوجا أوغلو « قابلان » أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، وأصدر لدولته

---

(١) انظر: مشروع دستور دولة الخلافة « المقدمة والأسباب الموجبة » الجزء الأول ، إصدار شباب حزب التحرير فى أوروبا الصفحات ٤ ، ٢٤ ، ٣٢ . ولا يخلو بحال أى خطاب من خطابات حزب التحرير وبياناته من الدعوة إلى إعادة الخلافة دون توضيح لأى عصر من العصور يمكن أن يكون شبها أو رمزا أو قدوة ، وما هى صفات الخليفة وموظفيه والعاملين معه . ولكن يخاطب فقط اسم الولاية على الدول الإسلامية الآن مثل ولاية الأردن ، ولاية سوريا وغيرها انظر : منهج حزب التحرير فى التغيير ، الخلافة ، ميثاق الأمة من منشورات حزب التحرير .

التابعية الإسلامية سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين على الوجه التالى:

أ- تنفذ على المسلمين جميع أحكام الإسلام دون استثناء .

ب- يترك غير المسلمين وما يعتقدون وما يعبدون .

جـ - المرتدون عن الإسلام يطبق عليهم حكم المرتد إن كانوا هم المرتدين ، أما إذا كانوا أولاد مرتدين وولدوا غير مسلمين فيعاملوا معاملة غير المسلمين حسب وضعهم الذى هم عليه من كونهم مشركين أو أهل كتاب .

د- يعامل غير المسلمين فى أمور المطعمات والملبوسات حسب أديانهم ضمن ما تجيزه الأحكام الشرعية ، وسائر أمور الشريعة الإسلامية من معاملات وعقوبات وبينات ونظم وحكم واقتصاد وغير ذلك على الجميع ، ويكون تنفيذها على المسلمين وعلى غير المسلمين على السواء ، وتنفذ كذلك على المعاهدين والمستأمنين وكل من هو تحت سلطان الإسلام ، كما تنفذ على أفراد الرعية إلا السفراء والقناصل والرسل ومن شاكلهم فإن لهم الحصانة الدبلوماسية .

وحول لغة الدولة تنص المادة الثامنة : اللغة العربية هى وحدها لغة الإسلام وهى وحدها اللغة التى تستعملها الدولة [١].

وفى الوقت الذى يرسم به الخطى للوصول على الحكم لم يتقن عمليات الانقلاب التى أتقنها الآخرون ، فكانت نهج جميع العسكريين الذين اغتصبوا الحكم فى العالم العربى منهم من مضى ومنهم ما زال يجثم على رقاب الأمة فى أكثر من موقع.

---

(١) انظر: مشروع دستور دولة الخلافة « المقدمة والأسباب الموجبة » الجزء الأول ، إصدار شباب حزب التحرير فى أوروبا الصفحات ٤ ، ٢٤ ، ٣٢ . ولا يخلو بحال أى خطاب من خطابات حزب التحرير وبياناته من الدعوة إلى إعادة الخلافة دون توضيح لأى عصر من العصور يمكن أن يكون شبها أو رمزا أو قدوة ، وما هى صفات الخليفة وموظفيه والعاملين معه . ولكن يخاطب فقط اسم الولاية على الدول الإسلامية الآن مثل ولاية الأردن ، ولاية سوريا وغيرها انظر : منهج حزب التحرير فى التغيير ، الخلافة ، ميثاق الأمة من منشورات حزب التحرير .

وإحياؤها مجددا فى هذه المنطقة . وهذه ليست دولة فى المنفى ، والملك لله ، فإن الأراضى الأناضولية هى دار الأجداد وميراثهم .

والعناصر الأساسية :

١- المكان : الأناضول .

٢- الجماعة : هم الذين ما زالوا يثبتون على الحق .

٣- النظام : الشريعة .

٤- الإمام : هو الذى سيقوم بتنفيذ أحكام الشريعة .

وبهذا الاعتبار ، إن العناصر موجودة فى هذا الحال ، وإن المسلمين لديهم دولة وعلى هذا المنوال سيكون ـ رأس أول السنة : محرم ـ تقويم المسلمين: التقويم الهجرى وعطلتهم : يوم الجمعة ، وتعيين أئمة المساجد يخضع لمقام الخلافة.

وإلى يوم اجتماع جميع رؤساء الدول الإسلامية الفيدرالية ، وانتخاب الخليفة الأصلى نحن ندير هذه الخلافة نيابة من طرفنا . ويناقضون بعض أعمال مصطفى كمال ، مثل عدم الاعتراف بالأئمة الذين عينتهم الدولة التركية ؛ لأن ذلك من اختصاص الإمام ويخضعون لمقام الخلافة ، وعدم استعمال الألقاب التى ابتدعها مصطفى كمال ، وارتداء الأزياء الإسلامية ، واستمرار تعليم التركية بالحرف العربى والمحافظة على من يتقنونه ، وتقسيم الميراث على الطريقة الإسلامية .

وهكذا فإن الخلافة تقترب كثيرا من خطاب حزب التحرير ، إلا أن هؤلاء أعلنوا الخلافة وأقاموها ، ومضى الخليفة فجعلوها وراثية يحكم الآن ابنه . أما حزب التحرير فلم يتمكن من الوصول إلى الحكم لإعلان الخلافة ويصدر عن (مقام الخلافة .. ؟!) بيانات وخطابات تنصب كلها حول هذا المفهوم[1] .

---

(١) خلافة دولتى : عمر بن رياست مفامى . خصوص تسلم قساولكى ٣٠ ربيع أول ١٤١٨هـ ، ٢ أكتوبر ١٩٩٧م تحت عنوان : كلما ازدادت البشرية طغيانا أذاقها الله العذاب شيئا فشيئا ، ورسالة مفتوحة إلى سفارات إيران والسعودية والسودان وإلى غيرها من سفارات البلدان الإسلامية ـ وكلها باللغة العربية ، وذلك بعد أن هاجمت القوات الألمانية المسجد (مركز الخلافة) وعبثت بأوراقه بالتعاون مع جهات أمنية وإعلامية تركية .

هذه النماذج من الاتجاهات كان لها تأثير واضح فى رسم صورة الخطاب الإسلامى والدعوة الإسلامية عموما ، ومع التمدد والانحسار فى هذه الدعوات إلا أنها ما زالت قائمة على الساحة ، ولعل أبلغ توسع نالته حركة الإخوان المسلمين على الرغم من كل الضغوط والحرب المعلنة ضدها فى كثير من الأقطار العربية .

خامسا : الدول الإسلامية :

فى فترة الاستعمار الأوروبى للعالم الإسلامى والتى بدأت منذ بداية القرن التاسع عشر واستمرت حتى اليوم فى بعض المناطق ، واقتضت الظروف أثناء التجزئة التى ما زالت حتى اليوم إلى أن يكون الإسلام الحافز والمبرر لوجود هذه الدول وترسيخ التجزئة فيه ، ولذلك لم تتوان الدول الاستعمارية أن تساعد على أن تحمل هذه الأجزاء ـ والتى أصبحت شرعية دولية ثابتة ـ اسم الإسلام أو ترفع شعار الإسلام ، أو أن تضع فى دساتيرها تقريبا واسعا من الإسلام .

ولقد كانت الأسباب المبررة لهذا وجود بعض التدين أو التعصب أو حتى الجهل بحقائق الإسلام ومقوماته ، أو أن هذه الدول قامت بالأصل نتيجة سيطرة حركة من الحركات الإسلامية عليها . وما زالت هذه الدول قائمة تحمل هذا الاسم وتدعى أنها دولاً إسلامية ، ولم تقم أى واحدة بالدعوة إلى منصب الخلافة ، أو تتخذ من ألقاب الخليفة وميزاته شعارات لها ، بل أكثرها اكتفى بأن يكون فترة مرحلية تقود عند تكامل التعاون بين المسلمين إلى قيام خلافة ، وأكثر ما وصلته هذه الدول حتى الآن هو منظمة المؤتمر الإسلامى التى تعتبر الهيئة الرسمية الوحيدة فى العالم والتى تعطى فكرة شبه قريبة عن عالم المسلمين.

ففى الدول العربية قامت المملكة العربية السعودية فى عام ١٩٣٤م عندما استكملت السيطرة على أجزاء واسعة من جزيرة العرب ولكنها لم تطلق كلمة الإسلام على اسمها ، بل أطلقت اسم أول داعية (حاكم) الإمام محمد بن سعود الذى استقبل الإمام محمد عبد الوهاب وأعلن تأييده له واحتفظ هو بالسلطة الدنيوية ، وترك لأبناء الشيخ السلطة الدينية ، وعلى الرغم من عدم وجود دستور ينظم الحياة فى السعودية باعتبارها وريثة حركة إصلاح دينى ،

كان لها شأن كبير فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، وتأثر بها الكثير من الحركات الإصلاحية فى العالم الإسلامى، فإنها اكتفت باستنباط أحكامها من الإسلام ، وتحديداً من المذهب الحنبلى فى الفروع ، وسنت بعض القوانين المستمدة من الشريعة الإسلامية ، ولم تشرك قانونا آخر بجانب دين الإسلام على الرغم من عدم استكمال عمل المؤسسات على نهج إسلامى متطور .

لكن الجو العام للدولة والتصرف يعطى المراقب أن اتجاه الدولة هو الاتجاه الإسلامى العام وليست سياسة هذه الدولة الآن خافية على أحد من المراقبين ، وما زال أبناء الإمام محمد بن سعود يتوارثون الحكم ، وأبناء الإمام محمد بن عبدالوهاب يتوارثون الدعوة والتربية والتعليم والأوقاف .

وقد برز العديد من الدعاة من هذه الدولة وقدمت الدولة لخدمة القضايا الإسلامية فى خارجها الكثير من المساعدات ، كبناء المساجد فى أنحاء العالم ، ونشر طبعات القرآن الكريم وترجمة معانيه بمختلف لغات العالم ، ويشارك السعوديون فى القضايا التى تخص المسلمين فى العالم مع التوجه الحديث للدولة بشكل واسع.

بقيت منطقة اليمن الشمالى بعيدة عن مجال التنافس الاستعمارى ، واكتفت إنكلترا باحتلال الجنوب اليمنى عدن منذ عام ١٨٣٩م ، واستمرت حتى عام ١٩٦٩م وبذلك فقد استمر اليمن الشمالى يحكم بنظام الأئمة الزيديين الذى توارثوه منذ فترة طويلة ، وتطبيق أحكام الفقه الزيدى فى العبادات والمعاملات.

ومع قيام الثورة اليمنية ١٩٦٣م والتى كانت وراءها الثورة المصرية ، ومحاولة علمنة اليمن باعتبار ذلك طريق الخروج من التخلف الذى مارسه نظام الإمام خلال قرون تهرب اليمن من العلاقات مع الغرب ، ومع ظهور أحزاب علمانية سواء الشيوعية فى الجنوب أم العلمانية والقومية الاشتراكية فى الشمال ، إلا أن التوجه الإسلامى بقى سائدا فى اليمن بعد الوحدة اليمنية ١٩٩٠م ، فإن دستور اليمن بقى مستمدا مع الشريعة الإسلامية كمصدر وحيد للقوانين والتشريع . وربما لا يتطابق كثيرا التطبيق الفعلى مع المرسوم فى القوانين

والدساتير[١] .

احتلت بريطانيا الهند مبكرا ومن خلال السيطرة التى مارستها شركة الهند الشرقية ، وكانت الهند تحكم من قبل المسلمين المغول (خلفاء ملوك المغول العظام) . ومنذ أن دخلت الهند بدأت عمليات التمييز بين الهندوس والمسلمين والمسلمون كانوا يملكون كل مقدرات القارة الهندية سواء أكانوا واعين ؛ أم أن الجهل يحكمهم ، أعدت بريطانيا خطتها الخفية لتقسيم القارة الهندية على أساس طائفى (دينى) ، وتمكنت أن تهيئ الأجواء لذلك ، وعندما قررت الانسحاب من الهند عام ١٩٤٧ كان قد تركز فى الأذهان تماما قيام دولتين على أساس دينى ، وفعلا تم الانفصال بين الهنود والذى يعتبر فى العصر الحاضر أو فى هذا القرن من أكبر الأعمال الدرامية التى جرت على الأرض .

وبدأ المسلمون يخرجون من الهند إلى شرق القارة وغربها ليلحقوا (بدولة الأطهار) أو (أرض الأطهار) (باكستان) وكانت دولة ـ مع كل القوى العاطفية التى امتلأت بها نفوس الأطهار ـ تفصل بينها دولة معادية (هندوسية) ومسافة (١٠٠٠) كم فى أقرب نقاط الاتصال البرى ، وأبعد من هذا فى مجال البحر فكانت باكستان الشرقية وباكستان الغربية ، وبقى فى الهند أكبر جالية (أقلية إسلامية) فى العالم بعد تعداد المسلمين فى الصين ١١٥ مليون[٢] ، وضمت منطقة كشمير ذات الأكثرية المسلمة ٨٥٪ من السكان إلى الهند، وكان مبرر قيام هذه الدولة أنها دولة إسلامية ، وفعلا فقد جعلت كلمة الإسلام فى صميم تسميتها « جمهورية باكستان الإسلامية » وحتى شهر تشرين

---

(١) راجع دستور الجمهورية اليمنية ، ومحاضر جلسات مجلس النواب اليمنى .
وفى نفس الاتجاه تقريبا قامت دولة المهدى فى السودان ، وسقطت مبكراً على يد الجنود الإنكليز والمصريين ، وقامت عدة محاولات لتطبيق الشريعة قبل استقلال السودان عام ١٩٥٦م وبعدها حتى جاءت ثورة الجبهة القومية ممثلة للاتجاه الإسلامى وهى التى تحكم السودان منذ عام ١٩٩٠م ، وقد توسعت المعارضة للجبهة القومية حتى شملت خلفاء المهدى (حزب الأمة) والذى يرأسه الصادق المهدى الآن .
(٢) إحصاء ١٩٩٧م وبنسبة ١٥٪ من سكان الهند البالغ عددهم ٩٠٠ مليون تقريبا .

أول (أكتوبر) ١٩٩٨م كانت مشكلات تطبيق الشريعة قائمة ، على الرغم من قيام باكستان على أساس دولة إسلامية ، وجرت خلال ٥٠ عاما تطورات مختلفة فى هذه الدولة ودخلتها الشيوعية والعلمانية والقومية ، وأهم الأحداث انقسام هذه الدولة إلى دولتين (بنغلاديش) فى الشرق و (باكستان) فى الغرب ، وما زالت قضية كشمير معلقة حتى الآن تحت السلطة الهندية وثورتها عمرها خمسون عاما .

مواقف باكستان عموما من القضايا الإسلامية جيدة وتمكنت تجاوز التخلف التقنى بحيازتها على القنبلة النووية التى أطلق عليها العالم (القنبلة الإسلامية) .

محطات على طريق ((الأسلمة)) فى باكستان :

١٩٤٩م : صدر عن البرلمان الباكستانى بالإجماع قرار الأهداف ، ويمثل أهداف إنشاء الدولة والنقاط الأساسية التى لا اختلاف عليها فى البلاد . ومنها أن : السيادة المطلقة على الكون لله - سبحانه وتعالى - وأن مقاليد الحكم التى تتولاها حكومة باكستان تعتبر أمانة فى عنقها ، مما يقتضى ألا يجوز لأحد أن يشرع قانونا يعارض أحكام الشريعة .

١٩٥٤م : وافق البرلمان على مقترحات للدستور تقضى بتطبيق الشريعة عبر التحاكم إلى المحكمة العليا فى إنهاء القضايا التى تتعارض مع أحكام الشريعة ، وذلك بعد خلاف بين العلماء والبرلمان فى تحديد صاحب الحق فى بيان رأى الشرع . ولكن البرلمان تم حله قبل إقرار الدستور .

١٩٥٦م : تأسس مجلس الفكر الإسلامى - كواجهة حكومية - تقوم بدراسة القوانين ، ثم تقديم تقارير بشأنها إلى البرلمان للنظر فيها ، ولا يزال المجلس قائما حتى الآن ، وقدم ما يصل إلى خمسين تقريرا . إلا أن التقارير التى يضعها تجد طريقها إلى النسيان والإهمال أسرع مما تجده إلى الإقرار البرلمانى ، بسبب عدم وجود آلية لمناقشتها وكثافة العمل داخل البرلمان ، ونتيجة لذلك لم تعدل أى مادة بناء على توصيات المجلس .

١٩٧٩م : قدم ضياء الحق تعديلا دستوريا تم بموجبه إعطاء الحق للمحكمة الشرعية فى إجراء تعديلات على القوانين بما يتماشى مع الشريعة ، ولكنه استثنى أربعة جوانب كان له رأى فيها ؛ وهى الدستور نفسه والقوانين الإجرائية ، وقوانين المرافعات ، وقوانين الأحوال الشخصية ، والقوانين المالية ، وهذه الأخيرة استثنيت لعشر سنوات يتم خلالها إعداد النظام المصرفى للتعامل مع النظام الإسلامى المالى .

١٩٩٠م : ألغت المحكمة الشرعية نحوا من خمسة وخمسين نصا من نصوص قانون العقوبات المتعارضة مع الشريعة ، ليتم بذلك موافقة هذه التشريعات مع الشريعة الإسلامية ، وذلك إلى جانب قوانين الزكاة والعشر المضاربة وأحكام الإثبات التى تم البدء بها قبل ذلك على مراحل .

١٩٩١م : وافق البرلمان على عهد حكومة نواز شريف الأولى على تعديلات على بعض القوانين ، وسن قوانين جديدة تتناسب مع الشريعة الإسلامية مع بقاء الاستثناء وتحديده على الجانب الاقتصادى والمالى .

١٩٩٨م : تنص التعديلات التى اقترحتها الحكومة وأقرها أحد مجلسى البرلمان على إلغاء جميع الاستثناءات ، والتطبيق الشامل لأول مرة للشريعة على جوانب الحياة كافة ، وذلك بجعل الشريعة ذات مرجعية أساسية وليست خاضعة للدستور ونصوصه[١] .

وقد علق رئيس وزراء باكستان عند الإقرار الأخير للعمل بالشريعة الإسلامية ، بعد أن هنأ الشعب الباكستانى على نجاح المشروع الذى وصفه بأنه سيمكن الشريعة من أن تحل محل شريعة الغاب التى ظلت تحكم البلاد حتى وقت قريب[٢] .

وهذا الأمر لم ينطبق على بنغلاديش ، فما زال الإقليم الشرقى من باكستان

---

(١) مجلة المجتمع الكويتية ، العدد ١٣٢٢ ، السنة ٢٩ ، ص ٣٦ ـ ٣٧ ، تاريخ ٢٠، ٢٦ أكتوبر ١٩٩٨م .

(٢) نفس المصدر من مقال : البرلمان الباكستانى أقَّر قانون الشريعة ، والإسلاميون والعلمانيون رفضوه (أمجد الشتلونى) .

سابقا فى دوامة الصراع لتطبيق الشريعة بين المؤيدين والمعارضين . وقد خلف استقلال باكستان وانفصال بنغلاديش الكثير من المشكلات والحروب التى لم تنته ولن تنتهى فى القريب العاجل . وبذلك فإن التطبيق الذى مورس فى بعض الدول للشريعة الإسلامية لم يمكن إطلاقا من إيجاد دول تعتبر نفسها حامية للشريعة وصاحبة الحق فى الدفاع عنه .

جمهورية إيران الإسلامية :

فى مطلع العام ١٩٨٠م نجحت الثورة الإيرانية فى إيران وأوصلت رجال الدين الشيعى الإسلامى (المحافظون) إلى السلطة فى إيران تحت ظل الإمام الخمينى ، وبدأ الإيرانيون تطبيق الشريعة وإقامة دولة إسلامية على ما جرت عليه فى زمن الرسول ﷺ . والإمام والخليفة الرابع الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه [١] ، كما أنه حددت حدود الدولة وأبعادها ضمن أطر المذهب الاثنى عشرى(الجعفرى) الشيعى الذى يعتنقه غالبية سكان إيران وبين المذهب الشيعى ـ ومذاهب السنة عموما فوارق فى المعتقد والسلوك والتطبيق للشريعة الإسلامية . وقد خاضت إيران الإسلامية حربا ضروسا لمدة ثمانى سنوات مع العراق الذى يعيش فيه الكثير من أهل السنة ، بددت طاقات البلدين ووصلت الخسائر بينهما من القتلى والجرحى إلى خانة الملايين ، عدا الخسائر المادية والطبيعية والاجتماعية . والثورة الإيرانية الإسلامية مرت بعدة تقلبات حاول فيها الإصلاحيون أن تكون لهم قضايا مسيرة الثورة ؛ لكنهم كانوا يفشلون دوما أمام المحافظين (رجال الدين) وما تزال القضية سجالا بينهما .

جمهورية أفغانستان الإسلامية :

قامت الثورة الأفغانية الإسلامية معلنة الجهاد فى سبيل الله لإخراج الاتحاد السوفيتى الذى تدخل بجيشه لحماية النظام الشيوعى القائم آنذاك ، وقد بدأت

---

(١) طالع من أجل ذلك الدولة الإسلامية للإمام الخمينى .

الثورة ضعيفة نوعا ما . حمل لواءها بعض الأحزاب والجماعات الإسلامية . وقدم الأفغان إبان الثورة فى الثمانينيات أيضا آلاف الشهداء وقد لاقت الثورة الأفغانية تأييدا لاحدود له من قبل البلاد الإسلامية والعربية ، فقد كانت باكستان محطة الجهاد الأولى ، واحتضنت باكستان أرضها وطاقاتها لمساندة الثورة للتدريب والتعليم والتجهيز ، وانضم إليها الآلاف من شباب الحركات الإسلامية فى العالم ، وبدا نجم الجهاد الإسلامى يعود ثانية بعدد التضحيات الغير محدودة التى قدمها الشهداء والمجاهدون والحكومات العربية والإسلامية ، والولايات المتحدة ، والدول الغربية ، حتى تمكن الأفغان أن يوقعوا هزيمة منكرة بالاتحاد السوفيتى ، كانت إحدى الأسباب الرئيسية لسقط المنظومة الشيوعية بسقوط الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠م .

لكن تحول الجهاد الأفغانى إلى حرب ضروس منذ بداية التسعينيات بين الفصائل الأفغانية المجاهدة وأخرج المجاهدون الآخرون من أفغانستان وباكستان ولم يتمكنوا من العودة إلى ديارهم وبلادهم ، إذ اعتبروا إرهابيين بوحى من الولايات المتحدة والدول العربية الإسلامية الدائرة فى فلكها ، مما أدى إلى بعض التحولات عند الأفراد إلى ردود فعل اتخذت حججا لمحاربة الجميع . وبقى الأفغان فى دوامة حربهم التى لم تنقطع حتى الآن ، ولم تجد أية نتائج إيجابية لممارسات تطبيق الشريعة الإسلامية فى أفغانستان المسلمة.

واعتبرت قضية الأفغان نموذجا مرفوضا من المجتمع الدولى ، الذى مارس لمحاربة قضايا الجهاد فى العالم الإسلامى ؛ فى البوسنة والهرسك ، والشيشان ، وفلسطين ، وكوسوفو ، وغيرها من مناطق العالم الإسلامى ، واعتبر المجتمع الدولى بوحى من الولايات المتحدة والحكام المسلمين أن الجهاد فى سبيل الله والذى مورس وقد يمارس فى بعض المناطق إرهابا وخروجا على الأنظمة الدولية يجب محاربته والقضاء عليه ، وقد اتخذته الولايات المتحدة ذريعة لضرب مواقع فى السودان ، ومواقع فى أفغانستان قامت فى شهر أغسطس من عام ١٩٩٨م بضرب أهداف للجهاد فى هذين البلدين .

كما اعتبر كل تحرك للمسلمين لنيل أبسط حقوقهم أو الجهاد لاستقلال بلادهم إرهابا (فلسطين) (كوسوفو) (البوسنة) (جنوب لبنان) (الفلبين) (كشمير) ، وأخيرا فى (الشيشان) وهكذا انعكست حركة الجهاد الأفغانى إلى حروب أهلية بين المسلمين أنفسهم ووضع الحركات الإسلامية فى دائرة الضوء وتلبيسها كل المخالفات الدولية حتى لو كانت تصرفات فرد من أدنى درجات التدين.

دولة الشيشان:

بعد سقوط الاتحاد السوفيتى ١٩٩٠م واستقلال الجمهوريات الإسلامية ، والتى استمرت بالنهج الشيوعى ، أو تحولت إلى النهج الديمقراطى عدا حركتين قامتا فى طاجاكستان ، قامت بهما منظمة النهضة وحققت بعض الانتصارات إلا أنها لم تتمكن من الثبات أمام النفوذ الروسى الكبير الذى سبق الشيوعية ولحق بها . وكذلك فى أذربيجان ولم تحققا أية انتصارات تذكر ، لكن الشيشان وهى إحدى جمهوريات القوقاز لم يصل تعدادهم إلى مليون نسمة ، تمكنوا من إثبات وجودهم فى روسيا الاتحادية التى تضم عددا من الجمهوريات الإسلامية الصغيرة الأخرى التى تتمتع باستقلال ذاتى ضمن روسيا الاتحادية ، مثل تاتارستان ، والداغستان والأنغوش والشركس وغيرهم.

وأعلنت هذه الجمهورية الصغيرة الاستقلال من جانب واحد ، ونالت شبه اعتراف من روسيا بذلك ، وأعلنت العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، وتطبيق النظم والقوانين الإسلامية . وحكم فيها رجال تمتعوا بحس إسلامى واضح ، ولكنها فى إطار محدود من الأرض والسكان ضيق جدا . عادت روسيا فى نهاية القرن بكل طاقاتها وإمكاناتها وأشعلت قضية الإرهاب وشنت حربا على الشيشان قبل انحسار القرن بثلاثة أشهر وبعد صراع طويل وجهاد معين تمكنت أن تهدم كل الجمهورية فوق رؤوس أهلها وتدخل عاصمة الشيشان التى أصبحت خرابا ليس فيها أى شكل للحياة ـ ولكن الحرب ما زالت مستمرة ...

دولتان من دول الجامعة العربية الثلاث والعشرين أضافت إلى اسمها كلمة

الإسلامية ، وهى جمهورية موريتانيا الإسلامية على شاطئ المحيط الأطلسى وهى آخر المد العربى من الشمال الغربى للقارة إلى الجنوب . سكانها لم يصلوا ثلاثة ملايين وأرضها صحارى قاحلة . وفيها ما زال العلم محترما وعلى طريقة الأقدمين ، لكنها لم تحكم بالإسلام إلا ما عرف عنه بالضرورة ، وتتحول الآن إلى حكم علمانى واضح تحت ظل بعض الأحزاب العلمانية .

أما الجمهورية الثانية فهى : جمهورية جزر القمر الإسلامية ، هى أربع جزر فى شرق القارة الإفريقية ، استقلت حديثا عن فرنسا ، ولكن ما زال المرتزقة يعيثون فيها فسادا بانقلابات متكررة ، يسيطرون فيها على مقدرات البلاد والعباد . وهى أيضا ذات موارد ضئيلة وذات سكان منعزلين فى جزرهم ، ولكنهم يحكمون بالإسلام .

أما عن ألقاب الخلافة الإسلامية ، فقد ذهبت من كل مناطق المسلمين عدا ما كان فى المغرب بأن يلقب ملك المغرب بأمير المؤمنين .

ونكون بذلك قد أعطينا صورة مقتضبة ولكنها واضحة عن الذين يمكن أن يصدر عنهم الخطاب الإسلامى خلال هذا القرن أو الذى سبقه . ونحن الآن فى هذا الواقع للدول التى ورثت عظمة الإسلام والخلافة الإسلامية ، وكذلك الأحزاب والأفراد والجماعات ، وقبل ذلك العلماء الذين كانوا روادا للنهضة الإسلامية الحديثة ، وهم الذين أبقوها صافية فى عقول النشأ ، مما أدى إلى ظهور الصحوة الإسلامية التى تحتاج إلى ضبط ، وترشيد ، وعقول أخرى تقودها إلى حكم الإسلام وإعادة الخلافة ، والتمتع بحكم فى ظل منهج الله عزوجل وما أراده من خلقه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] .

القسم الرابع
هدف الخطاب الإسلامى

ما هو هدف الخطاب الإسلامى وماذا نريد؟ وقبل الإجابة على هذا السؤال بتفصيلاته نقول ونلخص ماذا يريد دعاة الإسلام ، وبعدها يمكن أن نشير إلى الطرق التى اتبعت لتحقيقها:

١- الحكم بالإسلام فى جميع نواحى الحياة وفى جميع الأقطار وإعادة الخلافة الإسلامية . واعتبار التشريع الإسلامى المصدر الوحيد لدساتير المسلمين .

٢- توحيد الأمة الإسلامية تحت ظل نظام إسلامى بعيداً عن الانحراف والشرك .

٣- عودة المسلمين إلى دينهم بعد أن أهمله وتركه وانحرف عنه كثير من المسلمين أنفسهم ، والأخذ بكل ما فى الإسلام من مكارم وفضائل وقوانين وشرائع .

٤- محاربة الفاحشة التى تفشت بالمجتمعات الإسلامية عموما وجهر بها فى الواقع ، ولم يؤخذ بمبدأ الردع والقصاص وتطبيق أحكام الإسلام فى المخالفين .

٥- احتشام المرأة ، ومنع الاختلاط والتبرج والخروج عن أخلاق وآداب الإسلام وتذكيرها بدورها العظيم كمربية وأم .

٦- أسلمة التعليم على اختلاف مراتبه ومواقعه وإصلاحه والأخذ من العلوم ما يفيد أو ينفع المسلمين ، والأخذ بالتعليم الإسلامى الغير متأثر بالروح الغربية والغير مختلط وتفريق مراكز العلم بين الذكور والإناث .

٧- أسلمة الإعلام والتوجيه الإعلامى على اختلاف عطاءاته من الإعلام المقروء إلى المسموع إلى المرئى وبمختلف تفرعاته وطروحاته ، ومحاربة الإعلام الغربى الذى اقتحم على المسلمين مضاجعهم ، وأسلمة كافة نواحى الفن .

٨- أسلمة الجيوش وإعلان الجهاد الإسلامى على كل من يتعدى على حرمات الدين ، وإبعاد المفسدين عن قيادات الجيوش وتوجيهاتها .

٩- الانتهاء من الاستعمار والتبعية والهيمنة الغربية على جميع مرافق حياة المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفكرية والثقافية والعسكرية .

١٠- المحافظة على الثروات التى حباها الله للمسلمين واستغلالها أحسن استغلال ولصالح المسلمين ، وتوحيد النقد الإسلامى والبعد عن الأخذ بالربا والاقتصاد الربوى وإحلال الاقتصاد الإسلامى مكانه فى جميع فروعه النقدية والبنكية والاستثمار والإنتاج وحقوق العمال وغير ذلك .

١١- توحيد الطاقات الإسلامية على اختلافها فى أماكن وجودها وتخليص المسلمين (الأقليات) فى الدول الأخرى بإعطائهم حقوقهم المشروعة ، ورفع حرب الإبادة التى ما زالت قائمة ومستمرة تحصد المسلمين فى البلاد التى يشكل فيها غيرهم أكثر السكان وحمايتهم من الفناء والتهجير .

١٢- إزالة الحواجز والحدود والقطيعة بين الدول الإسلامية كطريق للوحدة المرجوة ، وقيام أمة الإسلام المرجوة سياسيا واقتصاديا وفكريا .

١٣- إنشاء سوق اقتصادية إسلامية تحفظ للمسلمين ثرواتهم وتنهض بهم للحاق بالمنظومات الاقتصادية العالمية المتطورة والمتقدمة .

١٤- تنقية الفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية مما أصابها من الغرب نتيجة حقبة الاستعمار الطويل ، وكذلك التخلص من العادات والأعراف التى تخالف الإسلام .

١٥ ـ التمييز بين دار الإسلام ودار الفكر ، وتحرير كافة المناطق التى يسكنها المسلمون للحاق بدار الإسلام .

١٦ ـ نشر الدعوة الإسلامية بين غير المسلمين من أهل الكتاب أو الوثنيين أو غيرهم ، واعتبار هذا الهدف من مقدمة الأهداف التى يجب السعى إليها وتحقيقها .

١٧ ـ التقارب بين المذاهب والأفكار الإسلامية ، وإزالة ما كان فى الماضى من آثار خلفت الفرقة والخلاف بين المسلمين ، والأخذ بالأصول الإسلامية وترك الخلاف فى الفروع .

١٨ ـ فتح باب الاجتهاد وحماية العلماء والفقهاء والمجتهدين ، والأخذ بالاجتهادات والإجماع وخاصة فيما يتعلق بالتطورات العلمية الحديثة التى بدأت تغزو الفكر الإنسانى ، ولها كثير من العلاقة مع التوحيد والإيمان والإسلام .

١٩ ـ خلق جو من الحب والتقارب بين المسلمين على اختلاف مواقعهم ، وتميز الأمة المسلمة عن سواها من الأمم ، وتهيئة أجواء الإيمان الصادقة بين المسلمين ، والدعوة إلى الإسلام فى العالم ونبذ الحروب والتآمر بين بنى الإنسان.

٢٠ـ تخليص المسلمين من جو الخوف والرعب والتحسب بإيجاد كيان يحمى ويذود عن قضاياهم، وتحقيق التوازن فى العالم ككل بين مختلف الشعوب والاتجاهات وتحقيق قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات] .

وغير ذلك مما يشغل نفوس المسلمين فى العالم من محو الفقر ، والغنى والسلام ، والأمن ، والصحة ، والخير ، وسعادة المسلمين . وقد صيغت كلها بأهداف وقرارات وتوصيات ومشاريع وآمال ، وقامت من أجل تحقيق هذه

الأهداف الحركات الإسلامية ، والأحزاب ، والجماعات ، والجمعيات ، والتجمعات ، والأفراد ، والمدراس ، والجامعات ، ودور النشر ، والوسائل الإعلامية الإسلامية . وكلها أرادت باختصار : تطبيق حكم الله فى الأرض . وأريقت الدماء ، وقامت الحروب وملئت السجون وشرد الملايين من أجلها.

فإذا كانت هذه الأهداف العظيمة لا يمكن تحقيقها بالضعف والتخلف والفرقة والعجز والجهل ؛ فالدعوة قائمة لتمكين أصحاب الأهداف هذه من الحرية والقوة والعلم والسيطرة والحكم والسلطان ، وإعطاء الزمن الكافى لذلك . والصبر وغلبة عوامل الشر والقهر فى العالم التى يقودها الشيطان وجنده ، وتجد فى القلوب الإنسانية من يستجيب لإحباط هذه الحركات والطعن بهذه الأهداف ، وعرقلة الوصول إليها من كثير من أبناء البشر . ويؤكد دعاة الإسلام على إمكانية تحقيق الكثير من هذه الأهداف إن أحسن حملة رسالة الإسلام إيصال خطابهم إلى المسلمين أولا وغيرهم آخرا ، وبعد ذلك فإن الله تعالى له قدرته وله قدره ، وله إرادته وله جنده ، ونحن أمرنا بالدعوة وها نحن سلكنا سبيلها متوكلين عليه جل وعلا.

ما من شك أن جميع الذين حملوا هَمَّ هذا الدين بعد زوال الخلافة الإسلامية ابتداء من مجرد التدين الذاتى إلى الصراع من أجل قيام الخلافة الإسلامية ، واستئناف الحياة الإسلامية بصورة عامة فى أذهانهم أن يسود الإسلام العالم ، ويسود السلام من خلال الإسلام العالم أيضا ، هذا فى عموم تحقيق الأهداف التى تصاغ بأشكال وألوان وأفعال كثيرة جدا أظهرنا بعضا منها ، وأيضا قد لا تتحقق كل الأهداف أو حتى أجزاء منها فإن السعى إليها والعمل من أجلها هو ديدن دعاة الإسلام أولا ، والغيورين على هذا الدين ثانيا ، وحتى المتدينين ثالثا ومن يحملون أسماء الإسلام وقد اكتفوا به فى نهاية المطاف . ومن خلال متابعة الدعوة الإسلامية منذ أيام الوعى الأولى إلى أيام الكتابة الأخيرة فقد تنوعت تلك الأهداف وتباينت وتفاوتت وبشكل واضح.

المهم فى الخطاب الإسلامى قلة التناقض . هناك بعض التناقضات فى الأسلوب لكن الغايات والأصول يندر الخلاف فيها ، خاصة بين المجموعة الكبرى من المسلمين أهل السنة والجماعة ونسبتهم للمسلمين تصل إلى ٩٠ ٪ من ١٦٠٠ مليون نسمة ، وحتى مع أصحاب المعتقدات الأخرى تنتفى قضية الشرك مع أكثرها ، والذين أشركوا من المسلمين (الطوائف المتطرفة) مازادت أعدادهم بالدعوة ، وإنما بالتوالد كالديانة اليهودية ، وهم قلة قليلة جدا ، ومنبذون من جميع المسلمين تقريبا ، حتى تغطت الأفكار الحديثة التى غرسها الغربيون إبان الفترة الاستعمارية وما بعدها من نفوس المسلمين ، وباسم محاربة الطائفية والتفرقة الدينية وكثير من الشعارات الأخرى ، بدأ يبرز هؤلاء وتسلط عليهم الأضواء ويسلمون القيادات المصيرية للأمة ، مع هذا فإن التجزئة لم تتح لهم التخريب فى البلدان الأخرى إلا بالحدود الضيقة ومع تصادم مصالحهم مع مصالح الآخرين ، لكن الجميع اتفقوا وتعاونوا على منع الخطاب الإسلامى بأى شكل من الأشكال . ومع أن الكثير من المسلمين قد اعتنقوا مذاهب وآراءً لا تعارض الإسلام فقط ، بل عليها أن تحاربه وتجتثه من أصوله ومن جذوره[١] .

---

(١) انظر كتابنا : المدخل لدراسة الإسلام والمذاهب المعاصرة .

obeikandl.com